مصطفى محمود

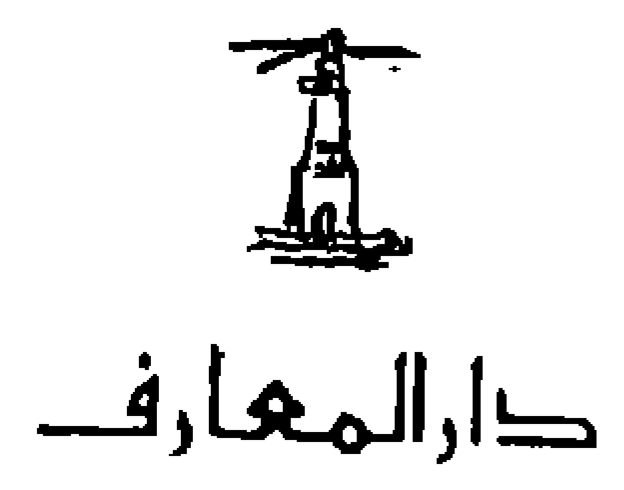


السِّرُّ الأعظم

مصطفى محمود



الطبعة العاشرة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

السرّ الأعظم

ليس إنساناً من لم يتوقف يوماً فى أثناء عمره الطويل ليسأل نفسه . . من أين وإلى أين وما الحكاية ، وماذا بعد الموت . أينتهى كل شىء إلى تراب . . . أيكون عبثاً وهزلاً أم أنها قصة سوف تتعدد فصولاً . . أكان لنا وجود قبل الميلاد . . وماذا كنت قبل أن أولد . . ومن أنا على التحقيق ، وما حكمة وجودى . . وهل أنا وحدى فى هذه الغربة الوجودية . . أو أن هناك من يرانى ويرعانى ويعتنى بأمرى ؟

وليس إنساناً من لم يحاول أن يحل هذه الألغاز ويجيب عن تلك التساؤلات ويقرأ بكل قلبه ، ويستمع بكل أشواقه إلى من يقول عندى جواب ، فالمسألة ليست ترفاً فلسفياً كما يدعى الماديون وإنما هى كل شىء ، وسوف يتوقف عليها كل شىء . . وإذا كان أصحابنا الماديون قد شغلوا أنفسهم باللقمة والنكاح ولذة الساعة عن هذا السؤال العظيم فما أبعدهم عن الإنسانية . ويالة من أمر مخز أن تسمع الواحد منهم يلوى وجهه ليقول مشيحاً بيده : هذه مسائل غير مطروحة . . مردداً بذلك شعاراً محفوظاً قد وزعوه عليه فى الحزب حيث جعلوا التفكير أمراً محظوراً ؛ ليظل الكل عبيد لقمة ، يقودونهم بالجوع ويدفعونهم بالحقد ، ويحركونهم بالأهواء قطعاناً من البهم ، لا ترى إلا على مدى شبر أمامها . . وما أبعد هذه الصورة

المشوهة عن الصورة الأخرى للفطرة النقية التى عبر عنها ذلك البدوى البسيط ، الذى وقف يتلفت حوله فى الصحراء ينقل بصره بين السموات والأرض ويحدث نفسه وهو يتتبع آثار بعيره على الرمل . . « إن البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير ، أفلا تدل سموات ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج على مبدع لطيف خبير . »

هنا فطرة نقية شفافة شفافية الهواء الطلق ، أدركت الحكمة والنظام من نظرة واحدة فأنكرت العبث وهدت صاحبها إلى الحقيقة ، وهناك فطرة سودتها المداخن وأصمها ضجيج المكن وألهبها عواء الغرائز فاستغرقها المطلب العاجل وأنساها وراءه كل شىء .

« إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءهُمْ يَوْماً ثقِيلا »

(سورة الإنسان : ٢٧)

« بَلْ هُمْ فى شَكٍّ يلْعَبُونَ » . (سورة الدخان : ٢٩)

وفى كتب سابقة حاولت أن أكلم هذا الملحد وأناقشه بمنطقه وأسلوبه وأبدأ معه من حيث يريد أن يبدأ (رحلتى من الشك إلى الإيمان . . حوار مع صديقى الملحد . . القرآن محاولة لفهم عصرى . . الله . . التوراة . . الماركسية والإسلام .. محمد ..)

واليوم موعدى مع المؤمن الذى اقتنع واستوعب كتابه وأراد أن يرحل معى رحلة من نوع آخر . . رحلة إلى أعماق السر . . وإلى جلية الأمر .

أنا اليوم مع رجل لم يكتف بأن يعرف أن الله موجود ، وإنما يريد أن يعرف هذا الرب ويستجلى أسراره . . ماهو ؟ . ولماذا خلق ما خلق ؟ . وما حقيقة العلاقة بين الحق والخلق – وبين العبد والرب ؟ . وما علاقة الكثرة بالواحد ؟ . وكيف خرجت الكثرة عن الواحد ؟ وما علاقة الله بأسمائه ؟

. . هل الأسماء هى عين المسمى أو غيره ؟ . وهل كان لنا وجود قبل نزولنا فى الأرحام ؟ وأين وكيف . . وماذا بعد الموت ؟ . وما البرزخ ؟ . وما الآخرة . . أفيها عمل وتنقل فى المراتب كما فى الدنيا ؟ . أفيها عبادة ؟ . وإلى أين تتناهى القصة ؟ . أنرى الله فى الآخرة ؟ . أيمكن أن نراه فى الدنيا ؟ (وكتابى رأيت الله كان مقدمة طويلة لهذا الموضوع) . . وما سر القدر ؟ . وما الفتح . . والكشف ؟ . أيمكن أن يرتفع الحجاب عن الغيب . . وكيف ؟ . وماذا يرى الرائى حينما ينكشف الحجاب ؟ . ومن هو العارف الكامل ؟ ؟ .

وموضوع اليوم بحث واستقصاء أرجع فيه إلى السادة العارفين وأعتمد على آراء الأقطاب الكبار الكُمَّل ، من أهل الكشف والفتوحات ممن لاشك فى مكانتهم العلمية وصدقهم ، أمثال ابن عربى والغزالى والنِّفَّرى والجيلى وأبى العزايم وابن الفارض ، كما أعتمد على رسالة دكتوراه عالية القيمة قدمها الزميل الدكتور محمد مصطفى فى موضوع الرمزية عند ابن عربى أفادتنى كثيراً فى تفهم هذا الصوفى العظيم .

موعدنا اليوم إذن مع أهل الله وأحبائه ممن انشرحت صدورهم لتلقى الأسرار الإلهية ، وليس مع المعاندين المكابرين من أهل الجدل . . ولن نلجأ فى هذا الكتاب إلى حرفة الجدل ومقارعة الحجج ، وإنما سيكون رائدنا ما قاله ابن عربى :

الصوفى فى أصل منهجه « عدم التنازع » ، أى لا ينازع الآخرين الرأى ، ولا يحاول قهرهم بالجدل . . يقول ابن عربى :

« أنا لم أنازع أحداً قط وكل مخالفة منى هى تعليم لا نزاع فإنى ما ذقت فى نفسى القهر الإلهى ولا كان لى من هذه الحضرة حكم »

وهو فى هذا يتأسى بالقرآن :

« لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ » .   (سورة البقرة : ٢٧٢)
« إنَّك لا تَهْدِى مَنْ أحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ » .
(سورة القصص : ٥٦)
« إنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاها » . (سورة النازعات : ٤٥)
« مَا عَلَى الرَّسُول إلاَّ الْبَلاغُ » . (سورة المائدة : ٩٩)
« عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » (المائدة : ١٠٥)

والسائر معى فى هذا الكتاب سوف يجد المسيرة أشق وأصعب من أى كتاب آخر ، وسوف يكتنفه الغموض ، وقد يبهم عليه الأمر . . وقد يتوقف . . لأننا هذه المرة نحاول النفاذ من أقطار السموات والأرض والخروج من حدود الزمان والمكان لنتحسس المطلق حيث لا تسعفنا العبارة ، وحيث لا نجد الكلمة ، وحيث تتقاصر الحروف عن المعانى (وهذا هو الشأن دائماً فى بحر المعارف الإلهية) ، يقول الإمام أبو العزايم :

إن العبارة لا تفى ببيان المضنون من كلام العارفين . . إنما هى أنوار وإشارات ، والنفس تذوق من المعانى بقدر ما وهبها الله .

ويقول :

العبارة لا تكشف الحقيقة ، ولو أنها تكشفها ما بقى على وجه الأرض كافر .

ويقول النِّفَّرى :

الكلمة حجاب والحرف حجاب . .

ويقول ابن عربى :

الله لا يتجلى فى الحضرة الكشفية بصورة واحدة لشخصين ولا بصورة واحدة مرتين ، وهو يتجلى بما لا مثل له ، ولهذا لا ينضبط الأمر ويستحيل الوصف وتعجز العبارة فهذه صفة الذى « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ » .

وبسبب انتفاء المماثلة يستحيل الاصطلاح ويستحيل طرح الأمر طرحاً موضوعياً يشترك فى فهمه الكل .

ولله حكمته فى هذا الاستسرار .

« جل جناب الله أن يكون شِرْعَة لكل وارد ، إنما يَطَّلع عليه الواحد بعد الواحد » .

فالله من صفاته أنه العزيز الممتنع الذى لا يبيح أسراره إلا لمن كان أهلا لتلك الأسرار فهى ليست شرعة لكل وارد .

ونبينا عليه الصلاة والسلام يقول : « لا تلقوا در ر الحكمة أمام الخنازير فتظلموها ، (فتظلموا الحكمة) ، ولا تحرموها أهلها فتظلموهم » .

فهذا العلم هو من قبيل « العلم المضنون » ، ومن قبيل المعرفة الخاصة التى تبذل للخاصة .

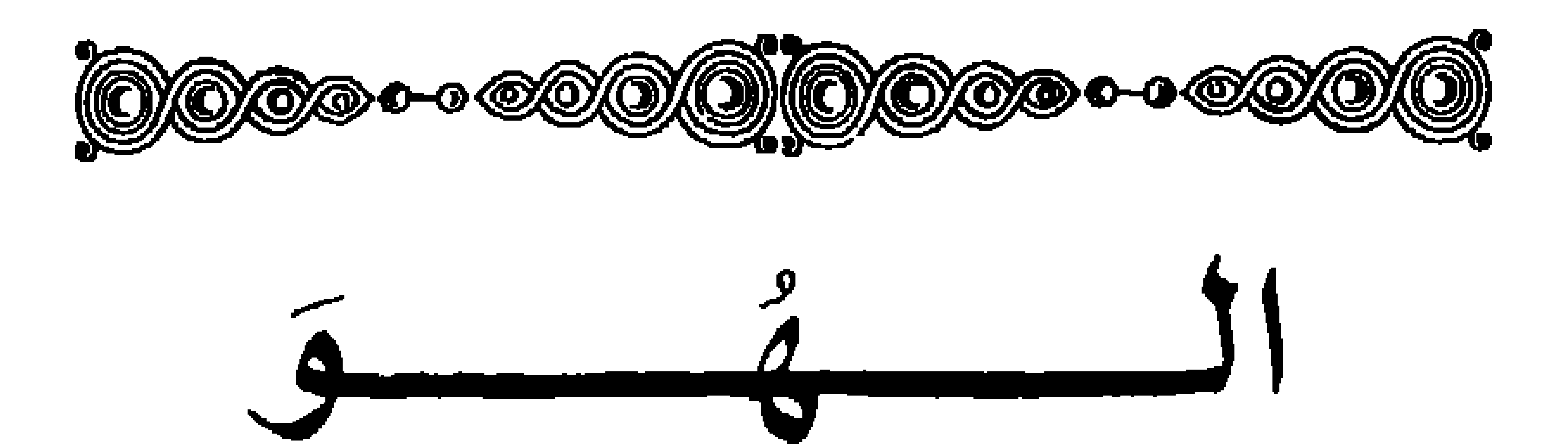
ومن هنا كان كتابنا هذا للخاصة من أهل الأذواق ، وليس للعامة .

ومن توقف به السير فى صفحاته فقد أدرك حظه . . إنما يأخذ كل واحد من الكلمات على قدر مشربه .

ولن نلجأ إلى التبسيط كعادتنا فى كتبنا ، فالتبسيط يقتضى التصرف فى المادة المعروضة ولسنا أحراراً فى هذه المادة ، إنما نوردها كما استقيناها من منابعها . . وأصحابها قد أوردوها علينا كما أُلقيت إليهم بكراً من مصادرها العليا ، فنحن أمام علم ضنين . . التبسيط فيه إخلال وابتذال .

ونعود فنقول : إن عبارات الصوفية هى فى حقيقتها تذوق لما لا ينقال . . فهى تعبر بالإشارة والإيحاء . . فمن وهبه الله الذوق التقط الإشارة . . وترجم العبارة . . ومن حرم الذوق فاتته الإشارة وأبهمت عليه العبارة .

جفت الأقلام ، وطويت الصحف .



الهُوَ

الصوفى العارف لا يرى حيثما توجه إلا الله .

« فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ » (سورة البقرة – ١١٥)

فكل ما فى الدنيا تجلياته وتنزلات أسمائه الحسنى وصفاته .

كل مظاهر الكون رموز من حيث تشير إلى الحقائق الإلهية والتجليات الأسمائية . . فما ثم شىء عادى وإنما كل شىء فى نظر الصوفى يدعو إلى الدهشة ؛ والوجود كله عجب لأن كل ما يبدو له يحدث عنده ذكرا ويكشف حكمة ويجلو أمرًا . . وهو أينما تلفت يقول مبهورًا . . الله . الله .

وليس فى الأمر مجاز أو تشبيه وإنما كشف روحى . نورانى .

يقول ابن عربى :

كل ما أذكـــره مـــن طلل	أو ربــوع أو مغان كل ما
وكذا السحب إذا قلت بكت	وكذا الزهر إذا ما ابتسما
أو بـــدور فى خــدور أَفَلَت	أو شموس أو نبـــات أنجما
أو بروق أو رعــود أو صبــا	أو ريــاح أو جنوب أو سما
أو نساء كاعبــات نُهَّـــدٍ	طالعات كشموس أو دُمَى
كل ما أذكــره ممــا جرى	ذكره أو مثله إن تفهمــا
منــه أسرار وأنـــوار جلت	أو علت جاء بها رب السما

صفـــة قدسية علويـــــة أعلنت أن لصدقي قدمـا
فاصرف الخاطر عـــن ظاهرها واطلب الباطن حتى تعلمـا

ويقول العارف بالله أبو العزايم :

حكمة الخلق أن يلوح ظهورًا غيبُ غيبٍ منزهاً مستورا

أى أن حكمة خلق الله للكون هى أن يلوح الخالق ويظهر ويُجْلِي للعيون غيبه المنزه المستور ، فأينما توجه الصوفى ببصره فى الوجود يهتف فى خشوع :

لا إله إلا هو يتجلى فى الوجود
خلقاً وصنعاً وحكمة وملكاً كبيراً
ظاهـــراً أينما تلفت القلب فى
السموات والأرض رامـــزاً ومشيرًا
صفحة الكون إن تأملت « رِقُّـــهُ
المنشور » سُطِّرت صفاته بها تسطيرا
أينما توجهت ثَم آياته تلـــــوح
للعين تبهـــر السميع البصـــيرا
هى أسماؤه وأوصــــافه تجلت
صـــورًا توقظ الألباب والتفكيرا

ويتساءل الإمام أبو العزايم . . كيف يَخْفى الإله ! ! ؟ ؟

كيف يخْفى والكون علواً وسفلا مظهر لـــه يلوح مثـــالا ؟
كل شيء أراه فى الكـــون يُنبي بمعانى توحيـــده إجمـــالا

ولسان حال الصوفى يقول على الدوام :

لا إله إلا هو فى الأول والآخـــر ظاهراً باطناً رامزاً خلف الحجاب
ما ترى فى الكون إلا سر أسمائـــه الـ ـحسنى تُجلى صـــورًا خلف نقاب

وهذا التجلى الإلهى فى الأشياء ليس حلولا (كما تقول بذلك الفكرة الهندية) .

يقول ابن عربى : إن الشمس تتجلى فى مرآة القمر وليس فى القمر من الشمس شيء (ليس فى الأمر حلول) كما أن نور الشمس من حيث عينها هى من تَجَلِّى اسمه (النور) دونما حلول .

يُمْـــــنُ الأكـــوان منزله وهو لا روح ولا جسد
مالـــــه حَـــدٌّ يعينـــه وهـــو المطلوب والصمـد
فجميـع الخلق يطلبـــه ثم لم يظفـر به أحـــد
أحـــد ما مثلـــه أحـــد بكمـــال النعت منفـــرد

ولا تكرار فى المظاهر الإلهية برغم الكثرة لأن كل شيء له وجه خاص يختلف به عن مثيله فلا مثلية إلا فى الظاهر . . وهذا الوجه الخاص هو صلة كل شيء بالله وهو سر الإبداع الإلهى الذى لا يكرر نفسه .

وتجليات الحق فى جِدَّة دائمة وأولية مستمرة لتجدد الخلق على الدوام ، فلا شيء يتكرر لأن الله ليس فقيراً وكل نَفَس إلهى يأتى معه بجديد . . والمحدودات كلها فى خلق جديد والناس من ذلك فى لبس . . ومن هنا كانت دهشة الصوفى الدائمة أمام الكون . . وآخر ما يتم خلقه فى السلسلة ما تخلقه الكائنات بأنفاسها من مخلوقات خبيثة أو طيبة « وهو ما يسميه الهنود فى علومهم thought forms أى ما تخلقه الأفكار الطيبة والشريرة من مخلوقات غير مرئية » .

وكلما عرفت الكون أكثر علمت أنه لا شيء إلا الله . . وما ترى حولك إلا عموم التجلى . . وهنا يصبح الحق (الله) دليلا على نفسه ودليلا على غيره وما ثم غيره .

فكل ما سوى الله ظل لله .

وكل ما سوى الله رامز لله .

وكل ما سوى الله من صنع الله . .

وما فى الوجود غير البرازخ . . ما فى الكون إلا الحجب كما يقول ابن عربى أى مظاهر توصل إلى الحقيقة الإلهية وتحجبها أو تكشفها .

فالله لا يبدو كما هو فى عينه وإنما فى قناع مظاهر .

نراه إذا كنا وما هــــو عَيْنُهُ ولكنــه كشف صحيح خيالى

العالم صفات على نحو ما يتراءى الحق تعالى من ورائها . . صفة حق تظهر خلف حجاب صفة عبد . . يقول ابن عربى :

الكل بحمد الله خيال فى نفس الأمر لأنه لا ثبات له وكل ما نرى فى الدنيا رموز تحتاج إلى تأويل .

فالله أظهــر نفسه بحقائق الأكوان فى أعيانها فاعبـــده به

إن كنت تعبده فلست بعابــد فانظر إلى قولى لعلك تنتبــه

وهذا تفسير ابن عربى لآية « إياك نعبد وإياك نستعين » (فاتحة الكتاب — ٥) أى نستعين بك على عبادتك .

فنحن لا يمكن أن نعبد الله إلا بالله . . لأنه الدليل على نفسه .

فإن كنت تعبد الله بنفسك فلست بعابد بل مدع . . إنما تعبد الله بالله بآياته وبأدلته على نفسه أى تعبده به .

وفكرة « التجلى » الإسلامية غير وحدة الوجود الهندية الوثنية .

فوحدة الوجود الوثنية pantheism تقول بوحدة الخالق والمخلوق ، فالقاتل هو عين المقتول ، والرب عين العبد ، والخالق عين المخلوق ، والعارف عين المعروف ، والكل واحد all one .

أما عند ابن عربى فلا توازٍ بين الأصل والصورة ، والمظاهر ليست عين الذات الإلهية ، فالذات الإلهية مُعَرَّاة مجردة عن ملابس الفروع وزينتها من ورق وثمر وزهر وكل ذلك من الله ، ولكن الله فى ذاته منزه عن كل ذلك ، (فهو لا يأكل ولا يشرب ولا يتزوج) فقد أعطى مالا يقوم به فهو الغنى المستغنى والفرع هو الفقير المحتاج ، ومن هنا لا يوجد تواز بين الأصل والصورة ، ولا يصح القول بأن الحق هو عين الخلق وإنما كل ما تذهب إليه فكرة التجلى أن كل مظهر عبارة عن رمز له مستند إلهى ، ومن هنا يقول ابن عربى : أوصيك لا تحتقر أحداً ولا شيئاً من خلق الله فإن الله ما احتقره حين خلقه . . ويكون ابن عربى بذلك من أصحاب وحدة الشهود لا وحدة الوجود .

والدنيا عند ابن عربى حضرة تشبيه ولا شبيه ، وحضرة تمثيل ولا مثيل ، فالله يدل على نفسه بضرب أمثلة فى المظاهر والتجليات ، فمن وقف عند المثال احتجب وضل ، ومن تجاوزه إلى المرموز الخافى وراءه اهتدى ، « والعلم » هو ما لله تعالى من الوجوه فى كل مخلوق ومبدوع ، والشريعة والحقيقة هما ترجمان الاسم الظاهر والباطن . . وأشرف العلوم هو العلم بالله لأنه متعلق بأشرف معلوم ، وما العلم بما سوى الله إلا عُلالة يتعلل بها المحجوبون وعن هؤلاء يقول القرآن :

« يَعْلَمُونَ ظاهِرًا مِنَ الْحَياةِ الدّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ »
(سورة الروم — ٧) .

والله خلق الإنسان على صورته « على مقتضى أسمائه وصفاته سميعاً بصيرًا مريدًا حيًا متكلمًا » ليدل عليه .

فأنت تعرف وحدانية الحق من وحدانيتك ، وفردانيته من فردانيتك ،

فأنت واحد وأنت كثرة ، وأنت ديمومة وأنت زمن ، وأنت ظاهر وأنت باطن ، وأنت حي مريد متكلم سميع بصير رءوف ودود رحيم كريم حليم جبار منتقم عليم نافع ضار . « وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ » (سورة الذاريات ٢١)

وكلها أسماء الله الحسنى وصفاته تنزلت فيك على قدر أهليتك واستحقاقك . مع الفارق أن صفات الله حق لله مستعارة للإنسان ، فهى لله بحكم الأصل ثم سرى حكمها فينا (حسب استعداد قوابل نفوسنا لها) بحكم الخلق على الصورة . . ولهذا لا يحق لأحد أن يقول إنه حليم ودود رءوف من عند نفسه دونما تَلَقٍ ودونما فضل من إله أو دين ، فكلامه منتهى الغفلة لأن قيام هذه الأخلاق فيه هى سريان الأحدية بأسمائها وصفاتها فيه ، فهى فضل إلهى مع أنه ينكر الله بكل بساطة وغفلة .

ثم إن للحق خصوص وصف هو الغِنَى الذاتى وللعبد خصوص وصف هو الذلة والافتقار والاحتياج الذاتى ، « وهى سلالم الوصول ومعراج الارتقاء إلى الحق تعالى ، فكلما لازم الإنسان عبوديته أفاض عليه ربه (بحكم احتياج الرتبة) . . ومن هنا لا يوجد هناك خلط أبدًا فى هذه الفكرة بين العبد والرب وبين الخالق والمخلوق ولا يوجد توازٍ بين الخالق والمخلوق ولا وحدة ولا اتحاد ولا حلول .

يقول ابن عربى : لا يمكن أن يصبح العباد أرباباً فى أنفسهم وإن ظهروا بنعوت سيدهم . . فإنك لا تصبح ملكاً بصولجان مستعار . . ثم ما أبعد الفرق بين صولجان وصولجان . . إنما هو اشتراك ألفاظ فافهم ولا تقع فى الخذلان وسوء الأدب .

إنما يتصف الحق تعالى على مقتضى ذاته ويتصف العبد على مقتضى ذاته ، فتختلف الصفات وإن اتحدت الأسماء. والألفاظ واحدة والحكم

مختلف والعبد عبد والرحمن معبود .

يقول أبو العزايم :

فعلمت أنى عبـــده والعبــد عبـــد لا مفر

ويقول: إن الله بعيد برغم قربه متعالٍ برغم ظهوره .

قريب لأهل القرب جل جلاله عَلِيٌّ على الإدراك والتحديد

فالله هو الظاهر فى المظاهر . . وفرق بين الظاهر وبين المظاهر كالفرق بين الخمر والقدح وفى ذلك يقول الإمام أبو العزايم :

صارت الأكوان للخمر قداح . .

أى صارت الأكوان مظهراً للخمر الإلهية (أى الأنوار الإلهية — أنوار الأسماء والصفات) .

« دِنُّها رسمى وقلبى كأسها » . . والشرب من هذه الخمر هى رؤية الله فى آياته .

وحينما يقول أبو العزايم: « الرسم » فإنه يقصد الجسد والمعالم المادية للأشياء ، فالجسد هو دِنُّ الأنوار والقلب كأسها .

وإذا استعرنا التشبيه العصرى فسوف نقول الظاهر والمظاهر كالنور فى أنابيب النيون وأنابيب النيون ذاتها . . فأنابيب النيون هى المظاهر فى تشكيلاتها المختلفة وهندساتها المتفاوتة . . وفى كل أنبوبة تُجلى صفة خاصة للنور حسب هندسة الأنبوبة وتركيبها . فأنبوبة تظهر النور الأحمر وأنبوبة تظهر النور الأزرق وأنبوبة تظهر النور البنفسجى ، وكل هذه الألوان من النور الأبيض الواحد . . فهى تفصيل ما أُجمل فى النور الأبيض وهو الظاهر فيها جميعاً على اختلاف مظاهرها ومن هنا يقول أبو العزايم إن التجلى هو نزول من الإجمال إلى التفصيل .

أَشهدَنَّا نـــور النزول عيانـا من مقام الإجمال للتفصيل

وفِى بيت آخر يقول الإمام أبوالعزايم فى نفاذ بصيرة نادر :

وأظْهِر لنا شفع الحقائق بالوتر

والوتر والشفع هما الواحد والعدد .

والواحد كما نعلم مدرج فى جميع الأعداد وسارٍ فيها والأعداد هى مضاعفات الواحد ، وهى تكشف لنا جميع الاحتمالات الرياضية والحسابية فى الرقم « واحد » وهى تفصيل ما أُجمل واستسر فيه .

ويقول أبو العزايم عن احتجاب الله فى المظاهر:إنه «تَنَكُّر الواحد فى العدد » .

ولولا التنكر لم يَلُحْ معدود

وفى بيت آخر ملىء بالإشارات :

إن التنكــر حصننا فى سرنــا لولا التنكر دُكَّت الأكــوان

ونقرأ هذا الكلام عند ابن عربى .

لولا أن فى الواحد عين الاثنين والثلاثة والأربعة إلى مالا يتناهى ما صح أن توجد به أو أن يكون عينها وهذا مثال للتقريب فافهم .

ويقول:إن العدد حاكم لذاته فى المعدودات ولا وجود له .

كذلك الظاهر حاكم فى صور المظاهر وكثرتها وخاف بالنسبة للعين والحواس . . وليس فى العلم الإلهى أغمض من هذه المسألة . .

ويقول:إن الواحد مُدرج فى الأعداد إدراج سريان دونما حلول أو اتحاد وهذا مثال لسريان الأحدية الإلهية فى كثرة المظاهر التى نراها دونما حلول أواتحاد .

ويقول الإمام أبو العزايم فى موضوع التجلى :

وأشهد هذا الكون لوحاً مسطراً   بآياته العليا تلوح لذى عقل

ويقول مخاطباً ربه :

تراك عيون الروح فى كل مظهر   فلا تحجب الآثار أسماءك الحسنى

ويقول :

تجلى لنا حتى نشاهـد أننـا   مظاهر آيات لأسمائك الحسنى

ويقول فى كلمات ثاقبة فى شفافيتها العرفانية :

ولولا سطوع الغيب فى كل مظهر   لأحرقنى وجدى وأهلكنى عقلى

أى أنه منذ مطالعته لنور وجه الله فى النشأة الأولى (قبل الميلاد) وهو فى شوق محرق إلى هذا النور.. ولولا سطوع هذا النور من خلال المظاهر الدنيوية لأحرقه الوجد وهلك عقله.

وهو كلام معناه أن المظاهر الدنيوية حجاب على الغافل الذى يقف عندها ويجعل منها نهاية مطلبه أما عند العارف الذى يتجاوزها إلى ما وراءها فهى دليل هادٍ كاشف لا حاجب ، وفيها يتذوق العارف الحضور الإلهى ويجد السلوى عن أشواقه المحرقة إلى لقاء ربه .

ومن هنا كان لا حجاب بالنسبة للعارف فالله الحق ظاهر فى كل شيء وهو عين الحجاب على نفسه .

ويلخص ابن عربى قصة الخلق وحكمته بأسلوبه الإشارى الجميل قائلا :

لما شاء الحق تعالى أن يتجلى بعينه لعينه فى كون جامع يجمع الأمر كله يكون كالمرآة فيشاهد فيها صورة الحسن المطلق والبقاء المحقق فى حضرة الإمكان والخيال خلق شجرة الوجود .

وظهور الحق فى الصور كان هذه الحضرة الخيالية الدنيوية أو حضرة التشبيه ولا شبيه وحضرة التمثيل ولا مثيل .

وهى حضرة تشبيه ولا شبيه . . لأن الله « ليس كمثله شيء » .

لأن حضرة الهوية الإلهية (حضرة الله فى ذاته) حضرة تنزيه لا يماثلها شيء ولا يشبهها شيء وليس لها كيف وكم ولا مقدار ولا مكان ولا زمان ، ولهذا يخاطب ابن عربى نفسه فى الدنيا قائلا :

إذا كان مشهودى هو الكيف والكَمُّ … فما ذاك إلا الوهم ما ذلك العلم
بما هو عين الأمر فى عين ذاتــــه … وهل يتجلى الحق فى ما له كَمُّ
فما هو حق فى الحقيقة واضـــح … ولكنه حق عليـه بنــا ختم
تَنَزَّهتُ بى عن لِمْ وكيف وكم ومــا … وهل عين لفظى قد يكون له الحكم
وهل ثَم موجود يصح فإن تـــزد … فما زدت إلا ما يكونه الـوهم

ولهذا يقول بأسلوب الإشارة العميق :

إنما الكون خيــال
وهو حق فى الحقيقة
والذى يفهم هـــذا
حاز أسرار الطريقــة

فالعالم عند ابن عربى خيال ورؤيا يجب تأويلها (لأنه خيال يرمز إلى حقيقة) ولو لم يكن العالم رمزًا بالصورة للأصل (الله) لم يصح وجود العالم . . وإلا فمن أين كان يكتسب حقائقه التى هو عليها .

ولهذا يقول ابن عربى :

لولا سريان الحق تعالى فى الموجودات بالصورة ما كان للعالم وجوده .

ومحال أن يظهر فى العالم شيء ليس له مستند فى الجناب الإلهى .

وفى رأى ابن عربى أن المرأة شفعت الرجل بمثل ما شفعنا الله بمعيته (شفع الله الأصل بالصورة فتعشقت الصورة الأصل) فالمرأة ترى فى الرجل ربها كما نرى نحن فى الله ربنا وأصلنا . . ألم يخلق الله حواء من آدم ؟ ؟

«وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ» (سورة الذاريات ٤٩) .

يقابلها فى الأسماء الثنائيات والمتقابلات . . الظاهر والباطن . . الأول والآخر .. النافع والضار .. القابض والباسط .. المعز والمذل ، وهما قدما الصدق أو هما اليدان اللتان خلق الله بهما آدم فأصبح جامعاً للضدين .

* * *

وإذا كانت الدنيا هى حضرة تشبيه ولا شبيه وحضرة تمثيل ولا مثيل . . وإذا كانت الدنيا هى ضرب أمثلة بالصور والتجليات . . وإيماء بالظاهر للتنبيه على الباطن ، وبالعدد للتنبيه على الواحد ، وبالمشهود للتنبيه على الغائب . . فما هو ذلك الغائب الباطن الخفى الواحد إذاً ؟

هو . .

هُو الْهُوَ .

هو الذات . . والوجه (كل شىء هالك إلا وجهه أى ذاته) . . هو الحقيقة . . وكلها مترادفات لمعنى واحد .

يقول ابن عربى :

لو عرف الْهُوَ لما كان هو .

فهو حضرة الغائب أبداً .

وحضرة الهوية أو حضرة الذات هى حضرة تنزيه مطلق وتجرد تام عن أى مثلية ، وهى الحضرة التى يرى فيها الله نفسه على ما هو عليه وانفرد الحق بها ولا مدخل لنا إليها بحال .

ويقول ابن عربى :

التجلى الإلهى فى المظاهر الدنيوية ينقال .

والتجلى الذاتى لا ينقال ولكن يُشهد وإذا شوهد لا ينضبط (لأنه لا يتكرر فى المشاهدات ويأتى كل مرة بصورة جديدة)

وحضرة الجمال لنا فيها مدخل وشهود .

أما حضرة الجلال فلا مدخل لأحد فى معرفته أو شهوده ، فهو الهيبة المطلقة التى ليس لأحد بها طاقة . وكذلك حضرة الذات وحضرة الهوية .

والأحدية موطن الأحد الذى لا يصح فيه التجلى أبدًا خوفاً من دعوى الاتحاد .

الأحدية عليها حجاب العزة لا يرفع أبداً . فلا يراه فى أحديته سواه لأن الحقائق سدت باب ذلك .

واعلم أن الإنسان وهو أكمل النسخ وأتم النشآت مخلوق على الوحدانية لا على الأحدية ، فهو واحد وليس « مطلق أحد » . . فالوحدانية لا تقوى قوة الأحدية والواحد لا يناهض الأحد . . ولأن الأحدية صفة ذاتية للذات الهوية فلهذا جاء الأحد مع أوصاف التنزيه للرب فى سورة الإخلاص . . « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » . .

ويقول ابن عربى عن هيمنة هذه الذات على كل شىء : لو علم العقل أنه معقول وعلم العلم أنه معلوم وأبصر البصر أنه مُبصر لذل الكل تحت القهر وغرق الكل فى هذا البحر .

ويجيب سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام على من يسأله كيف رأيت ربك ؟ نور أَنَّى أراه . .

ويصف العارف لحظة كشف الحجاب قائلا :

زُجَّ بى فى النور وأفنانى النور وأفنى كل شىء فما عدت أرى سواه .

ويفسر ابن عربى هذا النور بأنه سبحات العزة المحرقة المسدَلَة دون الحق تبارك وتعالى ، والتى تُفنى الرائى أنَّى توجه فهى ليست الذات ولا الوجه وإنما اللثام النورانى أو الحجاب النورانى للوجه . . والحجاب الذى انكشف كان الحجاب الظلمانى الدنيوى فما ثم إلا الحجب . . ومطالعة وجه الذات فى الدنيا أمر محال .

وهو يقول :

تَكَبَّر الحق على الصورة

الشأن فوق العقول والعيون

الذات باطنة عن الإدراك حساً ومعنى

الأمر ليس كما تدركه العين فجميع صور التجلى مُحْدَثة (أى طارئة متغيرة محدودة الآجال) .

ما فى الوجود إلا الحجب وهى موضع الإدراكات المختلفة .

ويقول:إن الله من حيث يعلم نفسه ومن هويته وغناه ، فهو على ما هو عليه وإنما هذا الذى وردت به الأخبار وأعطاه الكشف إنما تلك أحوال تظهر ومقامات تشخص ومعانٍ تُجَسد ليُعَلم الحق عباده معنى الاسم « الظاهر »

ومعنى ذلك أن ابن عربى يقول برؤية الله وباستحالتها فى الوقت نفسه .

فرؤية الأسماء الإلهية ممكنة (وهو يرى أن الأسماء حجاب على المسمى) وكذلك رؤية سبحات النور التى تحيط بالوجه . . أما رؤية الوجه أو الذات أوحضرة الهوية أوحضرة الأحدية أوحضرة الجلال فهى مستحيلة .

والكثير من الصوفية يسمون سبحات النور المحيطة بالوجه . . يسمونها الوجه الكريم على سبيل التجوز . . ومنهم الإمام أبو العزايم الذى قال

برؤية الوجه الإلهى . . وكان يقصد هذه السبحات بدليل هذه الأبيات التى قالها عن الذات :

هى فى كنز العما ليست تُـــرى ... إن تجلت أصعقت أهل الكمال

والجـــلال لها سياج مانـــــع ... عن حماها كل روح أو عقال (أى عقل)

نُزِّهت عـــــن أن يراهـــا غيرها ... أشرقت بالاجتلا حـــال انفصال

مظهـــــر يجلى لنـــــا أنوارهـــــا ... نزّهَنْهـــا عن حلول واتصال

ثم يقول :

« لم يلح منها سوى أوصافها »

ومعنى ذلك أن كل ما قاله عن رؤيته للوجه الإلهى ، وهو كثير ومتكرر فى أشعاره ، كان يقصد به السبحات النورانية التى تحيط بالوجه وليس الوجه ، لأن الوجه دونه الجلال والهيبة والعزة المهلكة لكل من تطلع إليه .

كذلك رؤية الذات مستحيلة ولكن رؤية أنوار مجلى الذات ممكنة .

ويقول ابن الفارض فى هذه الاستحالة بأسلوب نشيد الإنشاد :

فرشت لهـا خدى وطاءً على الثرى ... فقالت لك البشرى بلثم لثامى

أى أن منتهى الوصل كان لثم اللثام . . ولكن اللثام لا يرفع أبداً .

وفى شعر جميل بليغ يجيب ابن الفارض على من يقول له صف تلك الذات الإلهية :

يقولون لى صفها فأنت بوصفهـــا ... خبير أجل عندى بأوصافها علم

صفـــاء ولا ماء ولطف ولا هـــــوا ... ونور ولا نار وروح ولا جسم

تَقَـــدَّم كل الكائنات حديثهـــا ... قديماً ولا شكل هناك ولا رسم

وقامت بها الأشياء ثم لحكمـــــة ... بها احتجبت عن كل من لا له فهم

والله ظاهر من حيث المظاهر باطن من حيث الهوية ولكنه لا يتغير ولا يتكثر مع تلك المظاهر ، فلم يزل الحق تعالى غيباً فيما ظهر من الصور فى الوجود ، فنسبتنا منه نسبة الصفات والأسماء ، أما الذات فخفاء مطلق .

ولا يظهر فى مرآة الظواهر سوى حكم العين لا العين (أى تظهر صفات وأسماء ولكن الذات تظل باطنة أبداً لا تظهر ولا تتغير ولا تتكثر) وإنما تظهر الصفات فى أعيان الممكنات على قدر استعدادها . فما نرى من تكثر وتنوع هى أحكام ونسب للصفات والأسماء الإلهية .

وقد أتاحت هذه النظرة لابن عربى نفى التجزئة عن الحق تعالى لأن الله لا يعطى من ذاته فى هذه التجليات شيئاً ، كما أن الشمس لا تعطى من ذاتها شيئاً للقمر حينما تتجلى بنورها فيه .

ولهذا أقام العارفون فى « ليس كمثله شىء » فلم يروا الله إلا فى ذاته وهويته ، وهى ما غاب من الحق تعالى فى عين ما تجلى ، وتلك الهوية هى روح صورة ماتجلى . . فيا أنا ما هوأنا . . (أى أن الله ليس أنا) . . ويا هو ما هو (أى أن الله ليس ذلك الشىء وليس ذلك الرجل) . .بل هوهو . . وهذه لغة الدراويش الإشارية .

كما أتاحت هذه النظرة أيضاً لابن عربى نفى البينية . . فليس بينك وبين الله إلا الله ، فالله كما قلنا هوعين الحجاب على نفسه وهوالذى يحجب نفسه بنفسه وهو الذى يظهرها ، والله حجب نفسه بأسمائه . . وأسماؤه عينه .

ولذلك يعبر الصوفى عن ظهور الحق فى عين الخلق بكلمة . . هولا هو (أى هذه صفاته وأسماؤه لا ذاته) . . ويقول عن نفسه أنا لا أنا (بل هى ذات الله من ورائى فى الخفاء تعمل وتكشف عن نفسها فى ذاتى) .

يقول الله لنبيه: « وَما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ (نفى وإثبات) وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى » (سورة الأنفال – ١٧) فأسند الفعل إلى ذات نبيه ثم نفاه وأسنده إلى ذاته فى نفس العبارة ، وهذا سر من الأسرار العالية فى القرآن – ومعناه أن المخلوق له نصيب من الفعل كما أن الله له نصيب من الفعل ، ولا يصح إسناد الفعل كله لله وإلا لانتفت المحاسبة . . ولولا استحقاق المخلوق أن يكون مظهراً للحق تعالى ما ظهر فيه . . وسوف يكون لنا كلام طويل فى هذا الموضوع فى سر القدر وسر الـ أنا .

والله ليس علة العلل (كما يقول أرسطو) بل هو سبحانه يخلق العلل وليس بعلة . . فلو كان علة لارتبط بالمعلولات ولو ارتبط لم يصح له الكمال ، فلا شىء يوجب على الله شيئاً إنما هو يخلق بمحض الجود والرحمة ويفيض على مخلوقاته بمحض الكرم وليس باضطرار الضرورة .

والحق تعالى مريد غير مختار لأن أمره ليس فيه جواز وإنما أمره واحد وإنما الجواز للممكن لأنه قابل للطرفين أما الله فهو أحدىُّ المشيئة .

« حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى » (سورة السجدة ١٣)

« أفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أفأنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى النَّار »

(سورة الزمر : ١٩)

« وَما أمْرُنا إلا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » (سورة القمر ٥٠)

« إنما أمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون » (سورة يس ٨٢)

وفى ذلك يقول ابن عربى على لسان الذات الإلهية :

كـــن كيف شئت فإنى كما تكـــون أكـــون

أى تردد واختر كما تشاء أما أنا فمشيئتى واحدة وهو ما تفعله بالفعل وما تكونه آخر الأمر .

ومقام الهوية الإلهى هو مقام الجمع بين الضدين (الأول والآخر والظاهر والباطن من عين واحدة ونسبة واحدة بلا تقابل وبلا جهة) . . والعارف لا يصل إلى الجمعية مع الله إلا ببلوغه هذه الدرجة من الجمع بين الضدين (فى ثبوت عينه وفنائه حال المشاهدة وانتفاء الجهات بالنسبة له) ، وهو بهذا يعلم مكانه من حيث هو صورة رامزة للحق « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ (نفى وإثبات) وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » (سورة الأنفال – ١٧) .

وبالنظر إلى العالم نراه كإنسان كبير فى الجرم هو الآخر يجمع بين الضدين ففيه الحركة والسكون (جدلية هيجل) . . وفى هذا المقام يشير ذو النون المصرى إلى إيراد الكبير على الصغير وإلى إدخال الواسع فى الضيق من غير أن يوسع الضيق أو يضيق الواسع . . وفى الخيال نفس الشىء من الجمع بين الضدين .

وهذا هو مقام الهوية الإلهية وهو أعلى مقام وأخفى مقام وليس لأحد فيه قدم ، وبهذه الدرجة نفسها مقام الأحدية كما سبق أن قلنا فالأحد هو الآخر مقام عزيز منيع الحمى ولم يزل فى العمى لا يصح له تجل أبداً فإن حقيقته تمنع ذلك . يقول ابن عربى: إنه الوجه الذى له السبحات المحرقة فكيف هو ، فلا تطمعوا يا إخواننا فى رفع هذا الحجاب فإنكم تجهلون .

والهوية يعبر عنها الإمام أبو العزايم بحرف « الهاء » (والهاء كما نعلم أعمق الحروف نطقاً ومخرجاً وصدوراً فهى تخرج من الصدر من الجوف ، بعكس حروف أخرى سطحية مثل الصاد والسين والميم تخرج من اللسان والشفتين) ، ولذلك يتكلم عن « هاء الهوية » ويعتبر الصاد والسين رموزاً للجسد (الرسم والسور) .

وهذا كلام أهل المشاهدات .

ولا قدم فى هذا الموضوع إلا لمن شاهد .

والعلم فى هذا الموضوع علم قلبى كشفى وهى تذكرى لا يحصل بالاكتساب والاجتهاد والتعلم ، وإنما بالجود الإلهى والاجتباء والاصطفاء والإلهام من الله لمن سبقت لهم الحسنى عند ربهم ، ولمن جردوا نفوسهم وجردوا قلوبهم وأخلوها من الأغيار (كل ما سوى الله) والتزموا الطاعة والعبادة والبر والخير والذكر الدائم والاستغراق الكامل فى حب ربهم والشوق إليه .

يقول الصوفى :

أنتم تأخذون علمكم ميتاً عن ميت ونحن نأخذ علمنا من الحى الذى لا يموت .

ويقول الشيخ أبو مدين :

أطعِمـــونا لحمـــاً طـــريًّا لا تطعمـــونا القديـــد

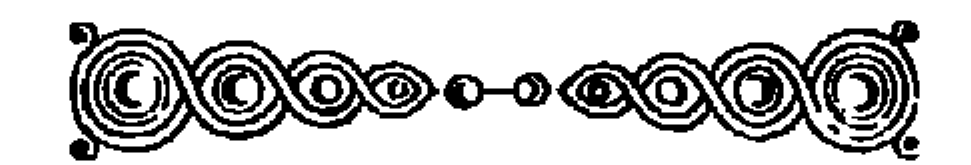
والعالم فى هذا الباب هو من قال إنى جاهل . . أما من يقول إنى عالم فهؤلاء هم الهالكون الذين يقول عنهم القرآن :

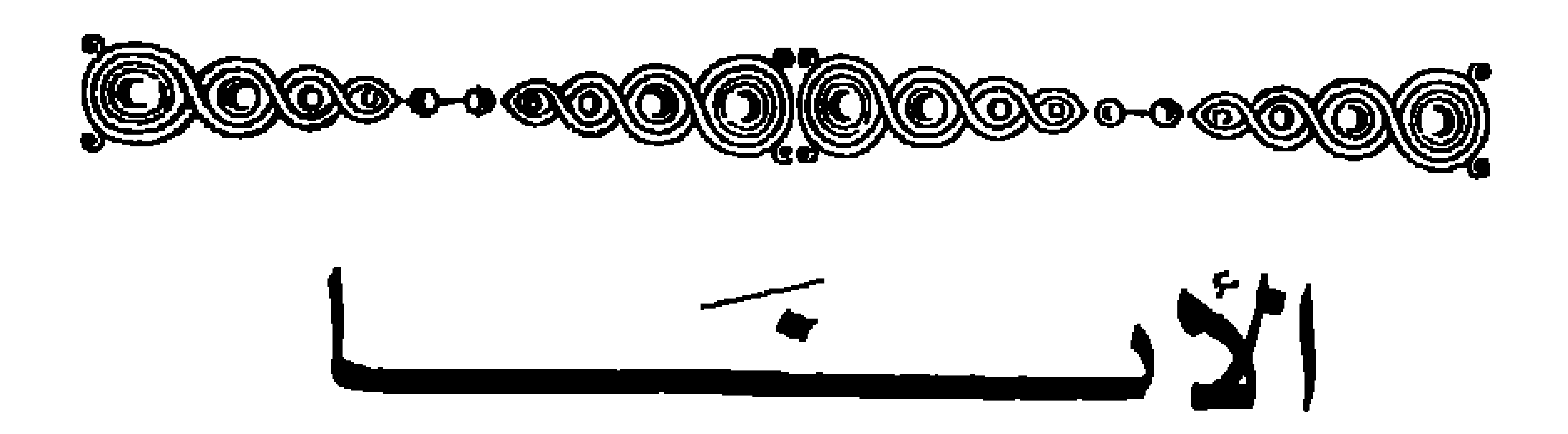
« كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » (سورة الروم — ٣٢)

« فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنات فَرِحوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ »

(سورة غافر ــ ٨٣)

جعلنا الله وإياكم من أهل هذه العلوم فبها وحدها يكون حق اليقين .





الأنا

قلنا:إن كل ما فى الوجود هى تجليات الله فى المظاهر .. فالله يلوح ويظهر فى كل موجود على قدر استعداده لقبول ما يفاض عليه من الصفات والأنوار الإلهية

وإذا كان القارئ قد فهم هذا الأمر واستوعبه فسوف يكون سهلاً عليه أن يفهم ما نقوله فى هذا الفصل عن الـ أنا .. وما يومئ إليه ابن عربى بالإشارة حينما يقول :

أنا لغز ربى ورمزه

أنا الصدفة التى تخفى اللؤلؤة (أى الهيكل الطينى الذى يخفى داخله الأنوار الإلهية) .

انا القمر تتجلى فيه الشمس (وشمس الإنسان ربه) .

أنا الظل الذى يلقيه السراج فى عالم الامتداد والإمكان (**والسراج هو الله**)

مشيراً بذلك إلى الآية القرآنية « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ، ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيراً »

(سورة الفرقان ـ ٤٥)

فظل الله فى الأرض خليفته وهو الإنسان ودليل الإنسان فى الأرض هو ربه أو شمسه والله قد ألقى بالإنسان فى عالم الامتداد والإمكان ثم هو يقبضه إليه قبضاً يسيراً بالموت وهو قبض يسير لأنه قبض إلى بعث وإلى حياة برزخية وليس إلى فناء .

وبالمنظور نفسه من الرؤية يقول الإمام أبو العزايم عن نفسه ويقصد الإنسان إطلاقاً :

أنا كنز ربى ورمزه

أنا مظهر لجمال طلعته

ذاتى مظهر لكشف اللثام (الله يكشف عن ذاتيّته فى ذاتيتى وهى شطحة فى غاية العمق) .

وهيكل ذاتى اللوح سُطِّر بالسر

أنا الرمز المشير لكنز غيب وطِلَّسْمى مبانىَّ الدنيَّة

أنا الطين مشكاة مضىء بصورة (بصورة الأسماء والصفات) .

وكلها إشارات إلى أن الإنسان هو المظهر الذى تتجلى فيه الأسماء والصفات الإلهيّة على قدر استعداده لقبول الفيض الإلهى .. والنفس قابلية صرفة تتفاوت عمقاً بين واحد وآخر .

يقول ابن عربى :

لقد صار قلبى قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأصنام وكعبــــة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

فما نراه من مظاهر الإنسانية فى الأرض هو نتيجة تجلى الصفات والأسماء الإلهيّة فى القوابل النفسية بحسب استعداداتها .

وما يظهر فيك ومنك إلا عينك (أى عين استعدادك) .

يقول الإمام أبو العزايم :

أنا نسخة من قبضة الكنز عندما تجلى بحسن الاسم والزينـــات

أنا الوصف والأسماء والشوق قادنى وقد رُفعت بين الورى راياتى

أنا شجرة الزيتون لا الشرق يحونى ولا الغرب يفهمنى ببعض صفاتى

وذلك إشارة إلى الآية القرآنية التي تقول: إن مصباح النفس « يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ » تنويهاً بأن أنوار الله وأنوار الذات مطلقة لا تتقيد بالجهة والمكان والمقدار فلا هي شرقية ولا هي غربية .

ويقول أبو العزايم :

من الطين قد صاغ المهيمن هيكلى وصيَّره كنزاً لتفصيل مُجمل

وقد سبق أن قلنا إن التجلى هو تنزُّل من الإجمال إلى التفصيل .. فالعلم ينزل إلى النفس مجملاً ثم يتفصل بعد ذلك بالتذكر والتعليم .. وما تحصِّله النفس من معارف هو تفصيل ما أجمل من النفخة الإلهية عند التسوية .

« فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » (الحجر ـ ٢٩) .

وهى النفخة التي تتكرر بالنسبة لكل مولود بعد تسويته وحينما يصبح قابلاً للفيض الإلهى .

والروح عند ابن عربي هي الصورة الانعكاسية فى القوابل لهذا النفخ الإلهى .

ويقول أبو العزايم متسائلاً :

من أنا والكيان يشغل قلبى جاهل بالمقام حِلفُ الذنب

ادعى الحب والمحبة حظر خُصصت للمراد بعد الشرب

(أى بعد رؤية الله فى آياته)

غَيَّبته عن دار دنيا وأخرى فر لله فى مقام الجذب

ثم يجيب على نفسه قائلاً :

إن قلت مصباح نور من جلالته فالقول لا يُدركن إلا لأمثالى

أو قلت صورته العليا مجمَّلة بالنو ر نور التجلى غيب متعالى

أو قلت قبضته العلياء من أزل لاحت تشير إلى نور البها العالى

فالقول لا يكشفن قدرى ومنزلتى إلا بسابقة الحسنى لذى الحال
سرٌّ ؟ نعم لاح فى طين وفى حمإ لم يتضح فيه تفصيلى بإجمالى

ويقول عن الأولياء :

تراهم عيون الناس ناساً ونورهم علىٌّ عن الأرواح فى كنز غيبه

ويقول عن نفسه :

فظاهرى الرمز المشـــير لباطنى إذا فُكَّ لاح النور من فيض إمداد

ويقول فى نغم راقص جميل :

آه إن كشـــف الحجاب واحتست روحى الشـــراب
يظهر الغيب المصـــــون فأرى العجب العجـــاب
آه إن فكوا الرمـــــوز يظهرن لب اللبــــاب
وأرى أنِّى صـــــــورة جُمِّلت بالانتســـــــاب

ويقول عن النفس الإنسانية :

مجمع الاضـــــداد كنز غامض. لم تـــر أسراره كل العيـــون
لم أبح بالغيـــــب فىَّ لأننى إن أشرت إليه أُرمى بالجنون

فالنفس مجمع الأضداد لأنها تجمع بين حضيض سُفل العناصر وأعلى عليين الأنوار الإلهية فهى (الثلج والنار قد جمعا برحمته) والإنسان فى حالة البعد عن ربه تراب وطين وشهوات وغرائز ، وفى حالة القرب والجمع على ربه نور على نور يرى ببصر ربه ويسمع بسمعه ، وهو فى الحالتين لا يفارق العبودية فهو العبد لم يزل والرب رب لم يزل .

لوح آيات التجـــــلى هيكلى جامع الضـــــدين ختمى أولى

فالإنسان مجمع البحرين يلتقيان ولا يمتزجان بينهما برزخ لا يبغيان .. بحر المادة وبحر الروح بحر هوان العبودية وبحر نور الألوهية بحر المُفَارق

والمجانس .. ولا امتزاج ولا اتحاد ولا حلول .. وإنما يظل الرب رباً ويظل العبد عبداً ، والصراخ لحظة الكشف ورفع الحجاب ورؤية العبد بعين الرب .. الصراخ فى هذه اللحظة بعبارات .. أنا الله .. سبحانى ما أعظم شانى ، هو نقص من الصوفى وعدم تمكن وسوء أدب مع الله وفقدان للوعى وسكر وعدم كمال من العارف .. أعاذنا الله من الخذلان .

والروح مُجانِسة للملكوت والملأ الأعلى فى صفائها ونورانيتها ، والجسد مفارق للملكوت والملأ الأعلى بكثافته وظلامه وغلظته ومجانس للشياطين بناريته ولكنه بالرياضة والمجاهدة يصفو ويـرق ويجانس الروح .

عجبت ومن ماء وترب ومن هوى ونار يشـــاكلها بكل مقـــام
يجانسها صفواً فيخفيـــــه نورها فيرقى إلى العليـــــاء بالإكرام
يُرى فى جوار الطهر فى المقعد العلى ويُشهَد فى العــــالين بالإعظام
أيارسم من سُفل تصاغ وترتقى ؟ ! فبيِّن بحال أو صريح كـــــلام

فيجيبه الجسد قائلاً .. « ولولا ظلام الليل لم يعرف الضيا » .

ولولاى ما جاهدت فى الله مخلصا ولولاى ما شُـــرِّفت بالإكرام

فبالمرض عُرفت الصحة وبالسواد عُرف البياض وبالسفل عُرف العلو فكان الجسد بهذا المعنى وسيلة إدراك ومعرفة ومعراج صعود إلى العلو وهذا شرفه .

وهذه الرياضة هى تزكية النفس بمجاهدة الجسد « نار المجاهدة نور المشاهدة) وسنتكلم عن هذه التزكية بتفصيل أكثر فى حينها .

فرسمى (أى جســـــدى) معراج لحضرة قربه
ونفخته شمس تضىء حـــــــذُودى

والعكس صحيح أنه فى حالة تدنِّى النفس إلى أوحال الجسد المادية واشتغالها بإشباع شهواته فإنها تثقل وتعتم وتجانس الجسد فى كثافته وظلاميته

وغلظته وهذا معنى ظلم الإنسان لنفسه .

والحركة صعوداً وهبوطاً هى حركة النفس ، أما الروح فهى دوماً فى الإطلاق .. الروح فى الجسد مثل الشمس فى ماء البئر تظهر فيه دون أن تتحيز .. كذلك النور الربانى .

نور معناه مثل شمس بماء

والروح دوماً مجذوبة إلى الله (إلى أصلها) وهى بالتالى تجذب النفس والجسد إلى العلو بينما الجسد متدنٍّ وفى حالة قصور ذاتى مادى يشد النفس إلى السفل إلى ماديته .

تجـــذب الروح الهيـــاكل للصفا أعـــلى المنـــازل
إن أداروا الراح صـــرفا أســـكرت عال وســـافل

والجذب الإلهى للنفس فضل وتقريب ، والجذب الجسدى للنفس إبعاد وتغريب .

جذبى لعالين إحســـان وتقريب والجذب للســفل إبعاد وتغريب

والسؤال الآن هو ماذا قبل ؟ ؟

ماذا قبل هذه التسوية فى الأرحام ، ونفخ الأرواح فى الأجســاد .. هل كان لنا وجود قبل ذلك .. وأين .. وكيف ؟ ! .

والإجماع على أنه كان لنا وجود قبل ذلك بدليل مشهد الميثاق فى القرآن وهو المشهد الذى أخذ علينا فيه ربنا الإقرار بربوبيته قبل النزول إلى الأرحام .

« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آباؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ » .

(سورة الأعراف : ١٧٢)

هنا كانت مواجهة . . الأبناء قبل أن يخرجوا من ظهور الآباء وقفوا بين يدى ربهم والابن لا يأتى قبل الأب إلا أن يكون فى اللازمان واللامكان فى العندية الإلهية والنفس ما زالت نوراً قبل أن تلابس جسدها الطينى .

يؤيد ذلك ما ورد فى سورة التين الآيتين ٤ ، ٥ :

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ .ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ »

والعارفون يفسرون هذه الآيات بأن الإنسان كان له طور نورانى فى الأزل كان فيه فى أحسن تقويم قبل أن يرد أسفل سافلين فى حِشوة الطين والماء المهين .

والإمام أبو العزايم يردد كثيراً فى أشعاره هذا الطور النورانى ، ويذكر بالشوق والحنين موقفه بين يدى ربه فى مشهد « ألست بربكم » ويطلب من الله أن يرفع عنه الحجب ليعود إلى هذا المشهد ويتمتع برؤية وجه ربه ويسمع خطابه فى الأزل « ألست بربكم » .

ويؤلف هذا المشهد الأزلى موضوعاً محورياً فى مشاهدات الإمام وهو حجته على أن الإنسان له وجود أزلى نورانى قبل التصوير فى الطين .

ولا عمر لى والبدء محتد نسبتى ودورة تلك الشمس بعض قوادمى
لقد كان موجوداً قبل أن تولد الشمس

ويحكى هذه القصة شعراً فيقول :

قد كنت نوراً ولا ملك ولا فلك فى كنز أخفى يرانى كل أبدال

والأبدال هم الأولياء الذين كانوا معه فى كنز الجود الإلهى (أى فى العلم الإلهى) ومرة أخرى يسميه كنز المُجمل (أى الذى أجمل فيه كل شىء) .

وفى مكان آخر يصف هذه الحضرة الأولى وصفاً غامضاً :

إلى حضرة الإطلاق بدئى حيث لا سماء ولا أرض بحيطـــة نون

ونون عند الصوفية هو بحر نور الأزل الذى بدأ منه كل شيء وأول قبضة من هذا البحر كانت النور المحمدى .

ونون كرمز وحرف هو الدواة التى جاءت منها كل الكلمات (كلمات الله التى لا تحصى) ولذلك يذكر القرآن الحرف (ن) مرتبطاً بالقلم .

« نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » (سورة القلم : ١)

ثم يذكر الإمام أبو العزايم أنه طاف بكعبة القدس العلىّ (وهى كعبة فى السموات تقابل الكعبة المعروفة على الأرض) وهو فى طوره النورانى :

طفت قبلاً بكعبة القدس حتى ... صح سعيي إلى الجناب العــالى

وفى مشهد غيبى آخر يقول :

أطوف حوالى قدسه فى مشاهد ... علت عن إشاراتى سمت عن تعقلى

ومن حضرة الإطلاق وكنز المجمل يتنزل إلى كنوز الأسماء الإلهٰية (لتفيض عليه من أوصافها وأحكامها) .

صرت لا كون لى أُعدت لبدئى ... فى كنوز الأسماء أحيا حبورا

وفى كنوز الأسماء يتم إمداده وتخصيصه بصفاته المتفردة المعينة .

ثم يأتى بعد ذلك مشهد الميثاق بينه وبين ربه ويسمع الخطاب الربانى فى الأزل « ألست بربكم » ثم يكون إهباطه من حضرة « الجمع » إلى حضرة « الفرق » فى هيكل اللحم والطين فى الرحم ، ثم ينزل إلى الدنيا وينسدل عليه حجاب الرغبات وتشتته الحواس فينسى تاريخه وتسجنه الدنيا فى إطار الزمان والمكان واللحظة والنزوة فينزل إلى أسفل سافلين .

ويذكر الإمام لقطات من هذا التاريخ ويشعر بالحسرة لما هو فيه من سجن ، ويحن إلى الإطلاق وإلى الصفاء الأول :

كنت روحاً أشتاق والنور حولى　　صرت جسماً فى دار دنيا دنيّه

ظِلٌّ كَوْنِى قد حجّب الروح ويحى　　عن شهود الأسرار فى الصمديه

كيف صبرى من بعد رؤية وجه　　فى صفا عن صـــورة المثنويه

أنت يا جسم قد سترت حبيبى　　صرت يا جسم للقريب بليه

خـــلِّ روحى تفـــر لله إنى　　فى هيام للوصل للأحـــديه

وفى مكان آخر :

أعدنى إلى بدئى لأفنى عن السِّوَى　　بجذبة حب منك يا سابغ الفضل

ألِحْ لى نور الوجه جَمِّل لطيفتى　　بسر اجتلا الأوصاف من غير ما ظل

ويعاوده الحنين إلى الأولية :

أحن إلى العود الذى كان أولا　　حنيناً إلى الإطلاق سر التجمل

لأشهد نور العين بالعين أشرقت　　من القدس لا من حيطة وتسفل

إلى البدء تحنانى إلى البدء صبوتى　　إلى القدس تهيامى لنيل تواصل

ويجود عليه ربه بمشهد العود فيغنى منتشياً :

أعدت إلى العلم اللدنى مُجمـــلا　　برتبة تعيينى فتبت من التـــوب

وفى مكان آخر :

أُعدت إلى أزل فلم أر غـــيره　　وصرت له المرآة جـــلَّ ثناه

ويذكر مشهد « ألسْت »

لى تَجلَّى من قبل كن فأرانى　　سر بدئى والعود بعـــد شتات

لم يكن فى الشهود لبس لأنى　　منذ بدئى أرى بلا حيطات (بلا حدود)

فعيـــونى الـــتى رأته قُبيْـــلا　　لم تُحجَّب بحيطـــة الكائنات

من « ألست » وقبلها كنت نوراً　　ســـورة التين وضحت كلماتى

كل يـوم شأن جـــديد وروحى تشهد الحـــق هيكلى مـرآتى

فالإنسان أزلى وهو عند الصوفية مجمع حقائق (كل مـا تراه فى الكون مفرقاً تجده فى الإنسان مجمعاً فهو الكتاب الجامع والكون صفحاته ، ففيه مادة الكون وعناصره ، وفيه طين الأرض ، وفيه سماوات داخلية لا نهائية وفيه أنوار الشموس وناريتها فى غرائزه وإشراقاته وإلهاماته ، وفيه الحقائق الغيبية كلها فقلبه عرش الرحمن ونفسه اللوح وعقله القلم وهيكله السِّدرة ومادته الطـور والكرسى ومنصة التجليات التى تتجلى فيها الأسماء والصفات الإلهية ، وهو الرق المنشور الذى سطَّر الله فيه قدره ، وفى داخله البحر المسجور ، بحر النور المتفجر الفياض بالجود الإلهى . . وجسمه المشكاة ، وبصيرته الزجاجة وقلبه المصباح وعبوديته لله هى مدده الذى يستمد كالزيت النور الإلهى الذى يضىء دون أن تمسسه نار ، كما جاء فى إشارات سورة النور) .

« اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ (وهذا المثل هو الإنسان) كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ ولاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىَ نُورٍ يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ للناس وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (النور : ٣٥)

والإنسان هو المثل الذى ضربه الله .

وعن جمعية الحقائق فى الإنسان يقول الإمام أبو العزايم :

متى حققتنى تجهــــل وتعلم
بأنك عن هويتـــه تنـــادى

وأنك لاستوا الرحمن عرش
ولوح خُطَّ فيه بلا مداد
وكرسيٌّ لأسرار تجلت
ومعراج به يرقى العباد

وفى مكان آخر يقول عن جمعه لتلك الحقائق فى نفسه :

أنا سدرة المنتهى واللوح والكرسى
أنا العرش والقلم المعَلىَّ عن نفسى
أنا الكون والأيْن المفاض بداية
أنا الكل فى أصل الأصول بلا لبس
أنا القدس فى التنزيه والحسن فى الصفا
أنا الروح إن حققت فى برزخ الرَّمس
أنا الصورة العليا التى عنِّى انجلت
أنا رمز مجلى الذات فى حالة الانس

والإنسان عند الصوفية هو البيت المعمور والكعبة (فهو معمور بالأنوار الإلهية) ويفسر الإمام أبو العزايم جمعه لكل الحقائق قائلا :

لأنى عنه (عن الله) صورة الكل فى الكل ، والإنسان صورة الكل فى الكل ، بسبب النفخة التى نفخها الله من روحه فى صورته الطينية ، وروح الله جامعة لجميع الحقائق وكليَّة فى صفتها وهذا عقد الله للإنسان الخلافة وأسجد له الملائكة .

وأكمل الصور وأتم النشآت الإنسانية هو محمد عليه الصلاة والسلام والصوفيون يتكلمون عن الروحانية المحمدية فى تعظيم شديد فهى أول ما خلق الله من نوره « أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر » حديث شريف . .

فهو أول الرسل فى الخلق الروحانى وخاتمهم فى البعث الجسدى وروحانيته كانت ممدة لجميع الأنبياء قبل بعثته نبياً بالجسد وهى مازالت تمد بالأنوار جميع الأولياء والوارثين ، وهو الوسيلة والباب الموصل إلى حضرة الله بالنسبة لكل من يطمح فى المكاشفة والمشاهدة ، وهو الشفيع الأعظم يوم القيامة . . وليس فى هذا التعظيم أى رائحة من دعوى ألوهية فكل العارفين يثبتون له تمام البشرية وكمال العبودية وأنه مخلوق لله ، ولكنهم يجعلون لروحانيته أولية فى الخلق وفضلا فى الإرشاد والإمداد والشفاعة والوسيلة ، وهى أمور لا تناقض الشريعة . . وهم لا يقولون بأن النبى يمد تابعيه من عنده ، فما عنده شىء ، وإنما هو قاسم والله معطٍ فالمدد من الله ولكن محمداً هو الوسيلة والباب وأتباعه يحشرون على قدمه ويتناولون من يده ، وهذا حال كل أمة مع إمامها .

وهم يؤسسون هذا العلم على المشاهدات والمكاشفات اليقينية العينية ، وليس على المغالاة العاطفية والتحيز أو العصبية الدينية (والصوفيون أكثر خلق الله سماحة وتسامحاً) .

ويتفق فى هذا الرأى ابن عربى والجيلى وأبو العزايم والنِّفَّرى والشاذلى والدسوقى وجمهرة الصوفيين والعارفين من أهل الفتوحات ، وقد وصلوا إلى هذه المكاشفات كل على انفراد فهم لا يرددون بها علوماً نقلية أو يقولون بها تقليداً .

والقول بحياة محمد عليه الصلاة والسلام الدائمة والسارية والممدة لأتباعه لها سند قرآنى فالشهداء فى القرآن أحياء عند ربهم يرزقون ولا يصح أن نقول عنهم قتلوا أو ماتوا ، وإذا كان هذا حال الشهداء فالأنبياء والصديقون أولى ، فهم مقدمون على الشهداء فى الرتبة .

« فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً » (فجعل النبيين مقدمين على الكل (النساء : ٦٩)

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » (الأنبياء : ١٠٧)

(وفى كلمة العالمين إطلاق فى المكان والزمان والتاريخ فهو باب رحمة ووسيلة إمداد لكل من يسلك على قدمه ويدعو بدعوته فى أى وقت وفى أى مكان) . . « وما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ » (سبأ : ٢٨)

أما أوليته فى الخلق فالإشارة عنها فى القرآن فى الآية :

« قُلْ إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » (الأنعام : ١٦٢) .

والقرآن يقدم جميع الأنبياء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى على أنهم مسلمون ، وقد جعل محمداً عليه الصلاة والسلام فى الآية أولهم مع أنه آخرهم بعثاً . . فلم يبق إلا أن يكون أولهم خلقاً .

وتتكرر نفس الإشارة فى الآية القرآنية التى يواثق فيها الله النبيين لنصرة محمد عليه الصلاة والسلام ولا تفهم تلك النصرة إلا أن تكون لجمعية الأنبياء وجود مستمر لا ينتهى بموتها فهى تظل تتناصر عبر الأزمان والأمكنة .

« وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .

(ال عمران : (٨١ ، ٨٢)

هى إشارات قرآنية ذات مغزى .

وكما قلنا إن عمدة هؤلاء القوم هى مشاهداتهم ومكاشفاتهم وعلمهم الذى يتلقونه من منابعه اللدنية الصافية ويُكاشَفون به معاينة .

ونظرية الإنسان الذى يجمع فى نفسه كل الحقائق التى يقولون بها تجعل للإنسان سيادة هائلة على الكون والظواهر والأمور الغيبية ، وترفع درجته إلى ما يلى الله وتجعل كل ما خلق الله يأتى بعده .

وهذا حال الإنسان إذا أدرك رتبته ووعى حقيقته وتصرف على مقتضى هذا التشريف الرفيع الذى شرفه به خالقه .

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً » (الإسراء : ٧٠) .

« وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ » . (الجاثية : ١٣) .

هذا التسخير الشامل الكلى لكل شىء فى السموات والأرض للإنسان يؤيد هذه الرتبة (ونحن نرى الإنسان الآن يمشى على تراب القمر ويرسل سفنه إلى المريخ) .

يقول الله لهذا الإنسان الكامل جامع الحقائق (فى كتاب المخاطبات للنِّفَّرى) .

سرك يرى بدون عين ويسمع بدون أذن .

سرك يعيش فى الأبد وجسدك يعيش فى المواقيت .

سرك لا تحيط به الألباب ولا تتعلق به الأسباب . . أنت منى . . أنت تلينى . . وكل شىء فى الوجود يأتى بعدك . . لا شىء يقدر عليك إذا عرفت مقامك ولزمت مقامك ، فأنت أقوى من الأرض والسماء أقوى من الجنة والنار أقوى من الحروف والأسماء ، أقوى من كل ما بدا . . فى دنيا وآخرة .

إذا تحققت بسرك تحققت بى . . أنا الذى منه كل شىء .

ويصف القرآن الملائكة المقربين بأنهم : « العالين » ويصف المؤمنين بأنهم « الأعلوْن » وبذلك يرفع الإنسان المؤمن فوق الملائكة المقربين . . « فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إلى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْن واللهُ مَعَكُمْ » (محمد : ٣٥) .

ويخاطب إبليس قائلا : « اسْتَكْبَرْتَ أَم كُنْتَ منَ العَالينَ » (ص : ٧٥) والعالون هم الملائكة المقربون الذين لم يؤمروا بالسجود وفى ذلك يقول الإمام أبو العزايم :

وفى « أنتم الأعلــون » سر مكــانتى
تجاوزت « العالين » فى فلك القرب

هذه حقيقة الإنسان وهذه مكانته . .

ولكن إذا غفل الإنسان عن هذه المكانة وتدنى وانحدر وأسلم نفسه إلى طينته وغرائزه البهيمية ومادته العمياء لتقوده ، فإنه ينزل بها إلى درك الهلاك الأبدى .

والشيطان بحسده وغيرته يحاول دائماً أن يُضل الإنسان عن ميراثه الروحى ويحبس انتباهه فى طينته الكثيفة وغرائزه اللزجة حتى يورده مهلكه ويشركه مصيره « إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخذُوهُ عَدُوًّا إنَّمَا يَدْعُو حزْبَهُ ليَكُونُوا منْ أَصْحَابِ السَّعِير »(فاطر : ٦)

« قالَ هذَا منْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إنَّهُ عَدُوٌّ مُضلٌّ مُبِينٌ » (القصص : ١٥)

إنه صراع وابتلاء تُمتحن فيه المعادن ليعرف الخبيث من الطيب ، أما الخبيث فيركم فى جهنم وأما الطيبون فيدعون إلى مكانتهم وتفتح لهم السموات وتسخر لهم كنوزها فى نعيم خالد لا ينتهى .

ويقول الإمام أبو العزايم عن مدد الرحمة المحمدى :

أشــــاهد أنوار الحبيب بباطنى
ينــاولنى صرفا مـــن المشروب

ويقول :

وفىَّ نعمْ ســـر الحبيب ونوره
« وفيكم رسول الله » قد طمأنت قلبى

إشارة إلى الآية القرآنية « وَاعْلَمُوا أنَّ فيكُمْ رَسُولَ الله لَوْ يُطيعُكُمْ فى كَثِيرٍ منَ الأمْر لَعَنِتُّمْ » (الحجرات : ٧) .

وهو يجعل من هذه المعية المحمدية إشارة لمعيَّة دائمة مطلقة من الروح المحمدية لكل الأتباع والوارثين . . ويقول عن إمداد الروحانية المحمدية للأنبياء من قبله :

فى آدم أشرقت أنوار طلعتــه أخفى ظهورك فيه كل صلصال

ويقول عن أوَّلية رسول الله :

كان نوراً فى البدء منه أضاءت كل شمس من حضرة واحديه
نوره البدء أصل كل جمال من لدى البدء لاح للآخريه
قبضة شعشعت ضيا كل فرد مظهر الحق ظاهــر للبريه

ويقول عن مشاهداته للرسول فى الأزل :

وروحى فى التجريد يا خير مرسل لقد شهدت أنوار رتبتك المثلى

وهو عين ما يقول به ابن عربى عن رتبة محمد عليه الصلاة والسلام . وعن جمعية الحقائق فى الإنسان . وابن عربى فى الواقع رائد لهذه النظرة الصوفية وأستاذ لهذه المدرسة فى الإنسان الكامل والنور المحمدى . . وهو يمضى إلى عمق أبعد من الباقين ويتتبع أعيان المخلوقات فى الأزل ليجيب

عن السؤال المعضل . . هل لأعيان المخلوقات (أى ذوات المخلوقات) أحقية وقِدم ووجود مستقل مع الحق تعالى فى الأزل أو أنها منبثقة منه ولا ذاتية لها ولا استقلال ؟ ؟

هل نحن أمام وحدة وجود مطلقة ؟ « والله هو المعبود الوحيد والموجود الوحيد وكل شيء منه » . وهو بذلك يكون عابداً لنفسه ، ويكون التكليف والحساب والجزاء علامات استفهام لا معنى لها . . أم نحن أمام ثنائية أزلية وشفعية أزلية . . والوَتْر « الواحد » مشفوع من البداية ومن القدم بالعدد ، فهناك الله ، وهناك ما سوى الله . . هناك الرب والعبد أزلا وأبداً .

يقول ابن عربى إنه لا يمكن نفى السِّوى مطلقاً فالسِّوى ثابت ولا يمكن أن يكون العبد عين المعبود . . وهو لهذا يقول بتعدد القدماء وينفى عن هذه النظرة التعددية أى شبهة شرْك بأن يقول إن كل ما سوى الله فى علم الله من الأزل وتحت هيمنته . . كل ما سوى الله من أعيان ثابتة ، عابد لله طوعاً أو كرهاً محتاج إلى الله فقير إلى الله فكل هذه الأعيان الأزلية هى أعيان فى العدم .

والعدم ليس معدوماً عند ابن عربى وإنما هو الشق الآخر المطلق المقابل للوجود الإلهى المطلق ، الظلام الذى يقابل النور والنفى الذى يقابل الإثبات والنار التى تقابلها الجنة .

يقول الإمام أبو العزايم بهذا المعنى :

كل شيء سـوَاك نار حمية وغرامى أنى أنال المعيـة

ويصف ابن عربى البداية بأسلوبه الإشارى الرمزى قائلا إن العدم من البداية قام للوجود المطلق كالمرآة فرأى فيه الوجود صورته ، كما رأى العدم صورته فى مرآة الوجود ، فرأت جميع الأعيان (الذوات) الثابتة

فى العدم صورتها فى مرآة الوجود فأصبحت ممكنات لكل منها وجه إلى العدم ووجه إلى الوجود يتلقى الفيض من الله وأدركت نفسها فى مرآة الله وكانت من قبل تجهل نفسها فى العدم ، وتشوقت إلى الوجود وإلى الخروج من العدم (والعدم نار) فطلبت بلسانها الثبوتى من الله أن توجد فرحمها الله بإيجادها وأعطاها لبسة الوجود وأفاض عليها من أسمائه وصفاته فقبلت كل عين من هذه الصفات على قدر استعدادها ، فإن كان الطاووس جاء طاووساً والخنزير خنزيراً فلأن نفس الأول كانت طاووسية لم تقبل إلا الصفات الطاووسية ونفس الآخر كانت خنزيرية لم تقبل إلا القالب الخنزيرى . . ولكن الله أفاض على الكل من وجوده اللانهائى فقبل كل واحد على مقتضى حقيقته . « وما حكمنا عليكم ولكن هكذا كنتم » .

هكذا يقول الله للكل يوم القيامة . .

« لم يظهر فيك من أحوال القدر وصفاته إلا حكم عينك وذاتك » .

« كما كنت فى ثبوتك ظهرت فى وجودك » .

« أنت ما قابلت فى العالم إلا صفتك وما قضيت عليك إلا بما أضمرته أنت فى مرادك » .

ما أعطيناك إلا ما كان فى نيتك ولا حرمناك إلا مما حرمت منه نفسك . . ومن أضمر فى نفسه رغبة فى التغير غيرناه ، ومن أضمر رغبة فى التطهر طهرناه .

ومعنى هذا أن قضاء الله المسبق بعلمه الأزلى تابع لأهلية الأعيان الثابتة واستعدادها وما أضمرته فيها منذ الأزل ، وليس مفروضاً عليها ولا مقحماً عليها . . فلا ظلم هناك . . ولا يظلم ربك أحداً . . إنما هو يخرج الخبء . . ويجلو المضمر فى العدم .

« أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ » (النمل : ٢٥) .

« إِنَّ اللهَ مخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ » (التوبة : ٦٤) .

« وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » (البقرة : ٧٢) .

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ » (محمد : ٢٩) .

وهذا سر القدر . .

لاثنائية ولا تضاد بين اختيار الرب واختيار العبد . . فقد اختار الرب للعبد ما اختار العبد لنفسه فأصبح قدر الله وقضاؤه هو عين حرية العبد وطبعه وحقيقته .

ولا يصح للعبد أن يقول لله . . « لقد خلقت لى طبعى الشرير » ، فهذا زعم مكذوب فالأعيان الثابتة (جواهر النفوس) أزلية فى العدم غير مخلوقة ، وإنما خلق لها الله لبسة الوجود وألهمها خيرها وشرها فى ذات الوقت فقبلت الشر ورفضت الخير « فألهمَهَا فُجُورَها وتَقْواها » ، (الشمس : ٨) .

يقول ابن عربى عن هذه الأعيان الثابتة إنها ليست بجعل جاعل ، وإن لها استقلالا اعتبارياً وإنها موجودة لذاتها لا لعلة ، وإن لها أحقية كما أن لله أحقية . . أنت يا هذا علة لكونك كذا . . أنت معلول بعلتك والله خالقك فافهم وهذه الأعيان ليست ذرات روحية كما عند ليبنتز ، كما أنها ليست مُثلا أفلاطونية لها أشباح على الأرض كما عند أفلاطون .

والله عالم بهذه الأعيان وبما ستكون عليه وهو حاكم عليها ، ولكنه لا يحكم على أحد إلا بما يجانس ضميره وخفاياه ، لا جبر ولا إكراه . . وإنما هو يخرج المضمر ويفضح المكتوم ويظهر كل واحد على حقيقة نفسه لا غير .

ومعنى هذا أن التشخص قديم وأزلى وباقٍ إلى الأبد . . كان فى العين الثابتة قبل أن تتسلم من الله لبسة وجودها ، وهو باق فيها بعد أن تخلع هذه اللبسة بالموت ، وهو ملازم لها فى البرزخ ثم هو يعاودها بعد التجسد فى البعث ، وهو مدخلها إلى جنتها أو نارها . . وهو أبدى مثلما أن الجنة والنار أبديتان ، ولا يظهر فى مرآة الوجود إلا حكم العين فالعين قديمة وأزلية فى حالة تجريد . . إنما يعطيها الخالق لبستها وحلتها الوجودية فيظهر حكمها .

والله فى جميع الأحوال رحمة صرفة ، وكرم صرف بالنسبة لهذه الأعيان الثابتة الأزلية . . يعطى بلا حدود ويفيض بلا حدود . . وفرحته بالنفس الضالة العائدة إليه أكثر من فرحة الأم بوليدها التائه الذى رجع إليها .

وهو قائم على جميع هذه الأنفس بالتربية والتزكية والإرشاد والإنذار والهداية ، ما قبلت تلك الأنفس الهداية – « هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » – (الأحزاب : ٤٣) . وهذا الإخراج من الظلمة إلى النور هو عين ما يقوله ابن عربى فى الإخراج من العدم . . « مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » ، (هود : ٥٦) .

والله متجلٍ بهذه الأفعال فى الكون كله .

وهو يفعل هذا تفضلا علينا لننفع وننتفع ، ولكنه مستغن عن هذا كله ، فما جرى بالنسبة له علم قديم ، وتحصيل حاصل لا زيادة فيه ولا نفع ولا مصلحة . . كان الله ولا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان .

وعلاقة الله بهذه الأعيان الثابتة هى عن طريق أسمائه وصفاته ، فإن الحضرة الهوية الذاتية لا تقتضى نسبة ، فهى لذاتها فى ذاتها ، ولكن ظهور الأعيان الثابتة بصفة العبودية والفقر والاحتياج استدعى النسبة من هذه

الذات من أجل الإيجاد فظهرت الأسماء والصفات لتفيض على تلك الأعيان أحكامها ولبستها المناسبة .

ومن هنا كان للحق تعالى حكمان ، حكم ما له من حيث هويته ، وهو رفع المناسبة بينه وبين عباده والحكم الآخر وهو الذى ظهرت به الربوبية الموجبة للمناسبة بينه وبين خلقه وبها أثّر فى العالم وتأثر به فهو يرضى ويسخط ويكره ويعاقب ويكافئ .

« قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤكُمْ » ، (الفرقان : ٧٧) .

فالشق الأول « ما يعبأ بكم ربى » ، هو حكم الهوية التى لا مناسبة بينها وبين الخلق ، والشق الثانى « لولا دعاؤكم » ، هو الذى أدى إلى ظهور حكم الربوبية الذى تنزل به الله بأسمائه وصفاته ليرحم خلقه ويستجيب لدعائهم

ومن هنا كان للحق تعالى خصوص وصف ، هو الغنى الذاتى ، وللعبد خصوص وصف هو الذلة والإفتقار الذاتى (وهما معراج الوصول إلى الفضل والمدد) .

ومن هنا لا يكون هناك خلط أبداً بين خلق وحق ، فلا يمكن أن يصبح العباد أرباباً مهما تحلوا بصفات سيدهم ، فكل طرف حافظ لرتبته فى جوهره ولا سبيل إلى عبور البرزخ بين العبودية والربوبية أبداً إلا أن يكون الأمر ادعاء وكفراً ، والعبد « جُنُبٌ » كله فى نظر ابن عربى لا يجور له لمس المصحف حتى يتحلىَّ بصفات سيده وحينئذ تكون يد الحق هى التى تمس المصحف .

والأسماء الإلهية عند ابن عربى قديمة أزلية ، وهى عين المسمى . .

كان الله ولا شيء معه ، وكان فى هذه الأثناء يعلم ويريد بقاء الأعيان فى العدم ، وكان حياً بذاته يرى ذاته ، وكان أحداً بذاته ، وهى كلها أسماء

معه فى أزله مثل الحى المريد البصير الأحد ، أما كونه رزاقا فبالقوة أزلا وبالفعل عند الخلق فهذا الاسم نسبة لا تُعقل قبل ذلك .

ومن هنا نرى ابن عربى يقول مثل المعتزلة بأن الأسماء عين المسمى ، ومثل الأشعرية بأن الأسماء نسبة بين الله وبين عباده .

ولا يمنع عند ابن عربى أن تتعطل بعض الأسماء ولا يلزم ما تعطل منها حكم ما لم يتعطل ، والإمام أبو العزايم يقول فى الأسماء كلاماً مشابهاً ، فالأسماء الإلهية فى كنز الذات .

مقتضى أسمائها فى كنزها

وهى تتنزل لتفيض صفاتها على العباد بسبب افتقارهم وطلبهم وحاجتهم :

مقام العبودة مقتضى حبه الذى
به تظهر الأسماء من عالم الغيب
افتقار العبودية هو سر هذا الإمداد

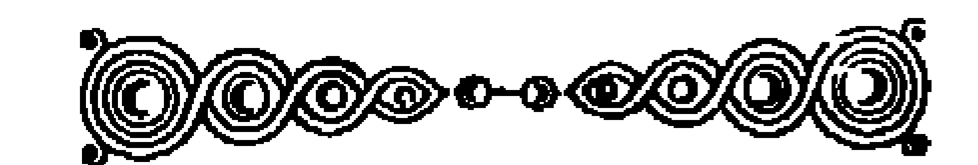
والأسماء والصفات هى التى تصور القوالب فى الأرحام ، وهى التى تمد المخلوقات فى تطورها .

تنقلت فى الأسماء قبل تطورى
وأُبرزت فى رسم يلوح بسور

يقول أبو العزايم فى حكمة جميلة من حكمه :

« السعيد فى الخلق من عرف حكمة إيجاده وسر إمداده » .

واقرأ المقال من أوله ففيه محاولة للجواب عن هذا السؤال الكبير .



المشهد التوحيدي
وكشف الحجاب

برغم كلام ابن عربى عن ثنائية الوجود وعن تعدد القدماء « فالأسماء الإلهية أزلية قديمة . . والأعيان الثابتة (وهى أصل الخلائق) أزلية قديمة ولها أحقية مثلما لله أحقية » يعود ابن عربى فيقول إن الأسماء هى عين المسمى وإن أعيان الخلائق هى فى علم الله أزلا قبل إيجادها وهى تحت حكمه وهيمنته ... وبذلك تنضوى هذه الكثرة الكثيرة مرة أخرى فى الواحد وتندرج الأعداد فى الواحد ويعود الموضوع إلى لغز الأحد جل جلاله لا إله إلا هو وحده لا شريك له .

والسؤال .. أليس لنا من سبيل إلى الخروج من هذه الكثرة المتكثرة وشهود الله فى وحدانيته . والجواب نعم ولا ..

لا مدخل لأحد إلى رؤية الذات والا هو فهذا غيب الغيب ولكن تجْلى أنوار الذات أو سبحات النور التى حول الوجه .. للعارف إليها مدخل وذلك بالخروج من عالم الكثرة « وهذا هو النفاذ من أقطار السموات والأرض » ولا يكون ذلك باجتهاد أو علم نقلى أو كسبى وإنما بفضل إلهى وسلطان إلهى .. بعد تصفية النفس وتطهيرها وإعدادها لهذا المشهد العَلىّ .

« يا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ » (سورة الرحمن ٣٣)

وهذا هو المعراج إلى حضرة الرب وهو حظ النبي والعلماء الوارثين السائرين على قدمه .

ومحمد عليه الصلاة والسلام هو الوسيلة إلى هذا الفضل .

« وابتَغُوا إليْهِ الوَسِيلَةَ » (سورة المائدة ٣٥)

ولا يعني هذا امتناع أي كشف بدون الوسيلة المحمدية . فابن عربي يقول إن التصفية الفلسفية والأخلاقية عن غير طريق نبي أو شرع يمكن أن تؤدي إلى حالات كشف (عن طريق الأرواح الملكية) ولكن لا يتجاوز الأمر انتقاش بعض صور الملكوت في النفس .. وهذا حدُّها .. وهذا ما نراه بين رهبان البوذية واليوجا أو زهاد الصوامع .. أما التصفية الشرعية للنفس على قدم نبي فإنها توصل إلى معرفة الحق تعالى عن طريق روحاني إلهي وميراث محمدي .. والأمر يختلف في الدرجة والرتبة والمدى .

والإعداد لتنزّل هذا الفضل العظيم يكون بالرياضة الروحية التي يسمونها التصفية أو التخلية (أي إخلاء النفس من الأغيار .. من كل ما هو غير الله) .. والتحلية (تحلية النفس بالذكر الدائم والعبادة والعمل الصالح والبر والخير) والتعلق (حب الله والتعلق به) والتخلق (التخلق بأسماء الله الحسنى .. الرحيم الرءوف الودود الحليم الصبور الشكور العليم الخبير المعطي الوهاب .. فيحاول المريد أن يتخلق بأكبر قدر من هذه الأخلاق الإلهية) والتحقق (والتحقق هنا ليس تحققاً بالربوبية فهذا مستحيل وإنما التحقق المطلوب هو التحقق بالعبودية الكاملة وصفاتها الافتقار . والاحتياج والخشوع والخضوع .. والذل لله والتبري من دعوى الأفعال وإسناد كل نجاح لله .. والتحقق له معنى آخر هو أن يتحقق الإنسان برتبته الشريفة وبمكانته كمجمع حقائق وكصورة مثال أقامها الله على مقتضى أسمائه ليكون لها الخلافة.

وأثر هذا التحقق هو الشعور بالمسئولية عن كل فعل وعن كل خاطر وشكر الله على عطائه ومنته) .

يقول ابن عربى عن بداية سيره فى الطريق :

خرجت عن كل ما أملك خروج الميت من أهله وماله .

وهذا رمز جميل لفعل التجرد والتصفية والتخلية التى ذكرناها . فهنا نرى الصوفى يخرج عن ماله وجاهه وسلطانه وجميع حظوظه الدنيوية ويتجرد لربه .

يقول ابن عربى .. ما سموا المال مالا إلا لأن هوى النفوس يميل إليه .

وهوى النفس أخطر معبود يجب التغلب عليه وهو أخطر معبود .. لأنه لا يُعبد شيء إلا به ولا يُعبد هو إلا بذاته .

« أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ » (سورة الجاثية ٢٣)

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

فلم يدع الرسول إلى قتل الهوى وإنما إلى تعديل مصرفه وإلى حسن توجيهه إلى المعبود الأمثل ولهذا يجعل الزاهد هواه فيما عند الله ويجعل العارف هواه فى الله ذاته .. وبذلك يكون زهد العارف مختلفاً تماماً عن زهد الهنود أو زهد رهبان الصوامع فهؤلاء يقتلون نفوسهم ونحن نحييها . هؤلاء يقتلون الشهوة والهوى ونحن نختار لها أحسن مصارفها .. وهذا هو اختلاف الطريق الإسلامى عن أى طريق .

والزكاة وسيلة تصفية وتجرد لأنها خروج للإنسان عن بعض ماله والزكاة رمز لعرفان المالك الحقيقى والمتصرف الحقيقى وهو الله فهى خروج بالنفس من دعواها .

وكذلك الصيام تجرد عن اللوازم الجسدية .

وكذلك السجود تجرد عن الا أنا ودعاويها وكبر يائها .

والتحقق بالعبودية الكاملة أهم وسيلة لاستدرار الفيض الإلهى لأن مقام العبودية مقام قابل للنفحة الإلهية فى أقصاها فكلما كنت عبداً زادك ربك فضلا .. رؤية الإنسان لعجزه وضعفه وذلته وقلة حيلته وجهله وغفلته ونقصه وهلاكه إن لم يتلق الترشيد والهدى من ربه هو الذى يعجل بالفضل فتفيض عليه الأسماء من كمالاتها .

« لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبرياء » (حديث نبوى)

وقد تؤدى التصفية إلى الفتح وقد لا تؤدى إليه والله فعّال لما يشاء ولا يوجب أحد على الله شيئاً .. وقد يحجب الله عبده المخلص عن المشاهد الغيبية لأنه لا يحتملها ولأن فيها متالف لعقله ونفسه .. وقد يفتح الله على المريد المدَّعى الكذاب ليفتنه ويبتليه فيؤدى به الفتح إلى دعوى الألوهية والهلاك الأبدى .

والفتوح عند ابن عربى ثلاثة .. فتوح العبارة وفتوح الحلاوة فى الباطن وفتوح الكرامات والمكاشفات .

وبفتوح العبارة تخرج الكلمة من الصوفى وعليها نضارة وطلاوة فتدخل القلوب وتستكن فى سويدائها كالسهام المسددة ويُجعل لكلامه القبول عند الناس والأثر الفورى عند من يسمعه والقدرة السحرية على التغيير والتبديل .

وبفتوح الحلاوة فى الباطن تحلو الخلوة وتلذ للصوفى فلا يشعر فيها بوحشة مهما طالت وتتحول إلى حوار داخلى وإلهامات وواردات إشراقية من الحق تعالى تجعل من وحدته أنساً ومعية دائمة .

وفتوح الكرامات وخرق العوائد والمكاشفات يروى منها ابن عربى قدرة

روح المريد على تدبير عدة أجسام فى وقت واحد فيظهر الصوفى فى أكثر من مكان فى وقت واحد (وهؤلاء هم الأبدال) وهو أمر خارق فى الدنيا وأمر عادى فى الآخرة لأن النشأة الأخروية تعطيه بطبيعتها .. ويقول ابن عربى إنه لا عجب فى هذا الأمر .. ألا تدبر الروح الواحدة أعضاء جسمية مختلفه ومتعددة فى الدنيا ..

وموضوع الكرامات وخرق العوائد موضوع يطول وليس هذا مكانه ولا أهمية له عند العارف ، بل إن الوقوف عنده يعطل هجرة المريد إلى ربه ويفتنه فى نفسه فيدعى الولاية ويجمع حوله الناس ، وقد يتخذ من الأمر وسيلة إلى الجاه والسلطان والثراء فيهلك وينتهى أمره إلى الخذلان . ولهذا كان الوقوف عند خرق العوائد والالتفات إليها وحكايتها أمراً مكروهاً ، والصوفى الحقيقى يعتبرها فى حكم العورة التى يجب سترها وإنكارها ويراها سراً بينه وبين ربه لا يصح البوح به أو الخوض فيه .. وبهذا يثبت للفتنة ويدل بسلوكه أنه كان فى هجرته قاصداً لربه لا لأى شىء آخر ، وبهذا يرتقى إلى أعلى درجة فى الفتوح وهى المشهد التوحيدى الذى وصل إليه محمد عليه الصلاة والسلام فى معراجه وهو رؤية أنوار مَجْلَى الذات الإلهية .. ويصف العارفون هذا المشهد بأن جميع الرسوم والمعالم المادية تختفى فيه وتمحق وكذلك جسد العارف ذاته يختفى ، ويتجرد العارف إلى وعى مطلق لا جسد له . يرى أينما تولى نوراً لا كيف له ولا وصف ولا حدود ولا جهة . ويجيب الرسول عليه الصلاة والسلام على من سأله كيف رأيت ربك قائلا .. نور أنَّى أراه .. ويصف القرآن هذا المشهد قائلا :

« مَا زاغَ الْبَصَر وَما طَغَى لَقَدْ رَأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى »

(سورة النجم ١٨)

ويقول الصوفى فى حيرة .. زجَّ بى فى الأنوار .

وقد يؤدى هذا المشهد إلى حالة من الذهول والجذب والجنون وفقدان العقل وقد يصاحبه فناء عن الفناء وغيبوبة فيصرخ الصوفى وهو فى حالة سكر .. أنا الله سبحانى ما أعظم شأنى .

ويصف ابن عربى مثل هذه الدعاوى بأنها عدم كمال وعدم تمكين وسوء أدب من المريد على بساط الأنس الذى مده له ربه .

ولهذا يقول الإمام أبو العزايم عن العارفين الكُمَّل :

على بسط الإيناس يخشون قدره لأن مقام الأنس سر المتـــالف

ويصف ابن عربى هذا المشهد بأسلوبه الإشارى الجميل قائلا :

إذا فنى ما لم يكن وبقى ما لم يزل .. حينئذ تطلع شمس البرهان لإدراك العيان ، فيقع التنزه المطلق المحقق فى الجمال المطلق وذلك عين الجمع والوجود ومقام السكون والجمود ، فترى العدد واحداً ولكن له سير فى المراتب فيظهر بسيره أعيان الأعداد ، ومن هذا المقام زل القائل بالاتحاد فإنه رأى مشى الواحد فى المراتب الوهمية ، وهذا الفن من الكشف والعلم يجب ستره عن أكثر الخلق فغوره بعيد والتلف فيه قريب ، فإن من وقف فى هذا المشهد دون تمكين ربما قال أنا من أهوى ومن أهوى أنا فبهذا نستره ونكتمه .

وفى هذا المقام قال الحلاج :

مازجت روحك روحى فى دنوى وبعـــادى
فكمـــا أنت كمـــا أنـــك أنـــى ومرادى

وقال قولته الشهيرة . . ما فى الجبة إلا الله .

وهو كلام فيه دعوى اتحاد وحلول وألوهية ووحدة وجود يحظرها الشرع .

ويعتذر الصوفيون للحلاج بأنه كان غائباً عن وعيه فانياً عن نفسه

مخطوفاً بصولة الحق سكران بالمشهد الأقدس .

وأيّاً كان تفسير الصوفيين فقد نزل الحلاج بهذا عن رتبة الكمال والتمكين .

ويصف ابن عربى ما يحدث فى هذا المشهد النورانى بأن الصوفى يصل إلى أعلى درجة فى معراجه ، وهى اللحظة التى تنمحى فيها الصفات المتقابلة وتنمحى الجهات مع بقاء عينه « أى ذاته » فى مقام لا مقام أو مقام الجمع بين الضدين أو المقام المحمدى أو الموقف «كما يسميه النِّفَّرى ، لأن عنده تنتهى الهجرة ويحدث التوقف » أو الإطلاق حيث تختفى الحدود والرسوم والمعالم . ويقول بأسلوبه الرامز الغامض .. فتح مكة هو الوصول ولا هجرة بعد الفتح فإنه ما ثم إلى أين ؟ ! « باعتبار مكة رمزاً لبيت الرب ورمز مركز الطواف ومركز الدائرة والنقطة ، وهى مرتبة لا يوصل إليها إلا بتمام التخلق بالأسماء وبلوغ كون الحق تعالى سمعك وبصرك . فترى بالله وتسمع بالله وبذلك تكون متصلا بالسر الإلهى السارى فى الوجود . والإنسان فى هذا المقام يصبح وجها كله « أى ذاتا مجردة عن الجسمانية » .

ويفسر اختفاء المعالم والرسوم والجسدانية بأن كل هذه أمور طارئة حادثة ، وفى حضرة المطلق يختفى كل ما هو حادث ويُذهب الحق تعالى أحكام العين (أى لبسة الحياة الدنيوية التى يلبسها المريد » ، ويخلع عليه حكمه وصفته مصداقاً للحديث القدسى :

« ما زال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها » .

ومعنى ذلك أنه يخلع عليه حكمه وصفته الإلهية ومن هنا يحدث الالتباس للصوفى فيصرخ أنا الله .. لأنه لا يكتشف الاختلاف بين الحكم والعين .. وما أذهب الله عنه إلا حكمه .. أما عينه « ذاته » فما زالت باقية تلزمها

رتبتها « الفقر المطلق والعجز والعبودية الكاملة » .. فلا جمع فى العينين .. وما زال العبد عبداً وما زال الرب رباً والأمر باق على ما هو عليه مهما ارتفع الصوفى فى معراجه .. فهو ما زال العبد الفقير المحتاج وما تغير عليه إلا الحكم فخلع الله عليه أنواره .

ولكن نشوة الحال ونقص التمكين تحجب هذه الحقيقة فيخيل إليه أن الحكم له والعين الإلهية له فيصرخ .. أنا الله .. ولهذا ينصح ابن عربى المريد قائلاً :

فكنه وصفا ولا تكنه ذاتاً فعين المحال بادى

ويعبر عن هذا الخلط بين ثنائية (العبد والرب) وبين الأحدية الإلهية مشبهاً الأمر بالخمر فى قدح الزجاج .

فكأننا سيان فى أعيـانـنا كصفا الزجاجة فى صفا الصهباء

فالعلم يشهد مُخْلَصَين تألفا والعين تعطى واحدا للرائى

فهو من فرط صفاء الزجاج وصفاء الخمر فى التباس « فكأنما خمر ولا قدح .. وكأنما قدح ولا خمر .. »

وهنا لغز المثنوية والوحدانية .

ولغز آخر هو ماهية النور المشاهد .

هل ما يراه المشاهد هو « اسم » الله « ومن أسماء الله أنه (النور) » .

« اللهُ نُورُ السَّمٰواتِ والأَرْضِ » (سورة النور ٣٥)

أم أنه يرى الاسم « الظاهر » ومن أسمائه انه الظاهر والباطن . . والباطن محجوب بالضرورة فلا يتاح للرؤية إلا الاسم الظاهر .

أم أنه يرى « أنوار مجلى الذات الإلهية أو سبحات النور التى حول الوجه الإلهى » .

أم أن الصوفى يرى روحه هو ويشاهد مرتبته . . أليست روحه نفحة من

روح الله فهى نور من نوره وحينما يشف الجسد تتألق الروح .

فمن أنا إن أبحث ببعض علمى سوى نور العلىِّ بغـــير فخر

أم أنه يرى صورة مثال للأنوار الإلهية منعكسة فى مرآة ذاته كما يرى شمساً فى بئر صافية . . وما يحدث أن نفسه وقد تطهرت وصفت بالتصفية قد أصبحت كالمرآة تنطبع فيها أنوار الملكوت .

وجميع هذه الاحتمالات واردة فى أشعار ومواجيد أبى العزايم وفى روايته لمشاهداته .

ويمكن أن تُفهم على أنها منازل ومراق فى العروج فمرة يُكشف له عن أنوار روحه ومرة يُطالَع بالحضرة الأسمائية ومرة يرى أنوار مجلى الذات .

والتجليات الغيبية لا تتكرر كما يقول ابن عربى والله لا يكرر نفسه فى مشاهده فثراؤه لا نهائى وكنوز غيبه لا تنفد .

يقول أبو العزايم فى هذه المشاهدات .

قد تراءى الجميل للروح حتى صارت الروح صورة المتجلى

أى أنه شاهد صورة مثال كما تتراءى الشمس فى بئر .

ومرة أخرى يقول :

حجبتنى أنواره عن وجودى فى شهودى فكان عين حياتى

ونفهم من كلمة « فكان عين حياتى » أنه شاهد الله بالله فكان الله بصره وعين حياته التى شاهده بها .

ومرة ثالثة أجليت له أنوار روحه :

ظهوراً به تجلى لروحى حقيقتى فأعرف نفسى فى اتضاح النور

وأعلم قدرى فى العوالم كلهـــا أنا المظهر المرموز للديهور

والديهور هو حضرة الاسم الإلهى « الباقى » .

وكلما ارتفع المرتقى كلما أصيبت النفس بالبهت لما ترى واستغلقت عليها الألفاظ فلم تعرف كيف تعبر وأبهم عليها الحال .

يقول عن هذا المنزل :

قربها البعد ووصلى فصلها عجزى الإدراك والكشف ذهول

وهو كلام متناقض بلا معنى يعنى الحيرة التامة والبهت والإبهام .

وفى مثل هذا المعنى يقول ابن الفارض :

فوصلى قطعى واقترابى تباعدى وودّى صدى وانتهائى بداءتى

وهى حالة تقترب من فقد العقل التام

وفى مثل هذه المنازل يحدث عند البعض حال « الاصطلام » وهو فقدان السيطرة على الجسم فيصرخ ويصيح ويتطوح ويرقص ويقفز فى الهواء .

والحقيقة أنه لا وصل ولا اتصال ولا اتحاد فى الصوفية إنما هى حالة السكر وخطفة العقل بالمشهد هى التى تؤدى بالصوفى إلى التفوه بهذه الألفاظ المحظورة .. وحفظ رتبة العبودية يقتضى الفصل الدائم فلا وسيلة لعبور البرزخ بين العبودية والربوبية ولكنها الجذبة والاصطلام الذى تكلمنا عنه .. ويقول فى ذلك أبو العزايم :

ففصلى حفظ مرتبتى وقدرى ووصلى جذبتى تمكين حالى

وينصح المريد بالمحافظة على البرزخ الفاصل بينه وبين الربوبية حتى لا يشطح ولا يدعى ما ليس له .

واحفظ البرزخ فى القرب إذا لاح غيب الغيب من غير اكتساب

وفى البحر العميق بين الفرق والجمع (البعد والقرب) يهلك الكثيرون إذا لم يستقيموا على صراط الشريعة وإذا لم يلتزموا التجرد التام .. يقول :

أمح عنى شغلى بنفسى وغيرى افْرِدَنِّى لحضرة الديهور
واعبرن بى فى يم فرقى وجمعى مستقيماً على صراط النور
رتبتى العجز أنت رب قدير فافتح الكنز كنز رب غفور

ويقول عن التجرد والتصفية :

تجردت عما تقتضيه عناصرى فأشْهِدَنى الغيب المصون بلا ريب

ويقول :

من العنصر الدانى (الدنىء) تجردت للسير
وللوصل قد جُرِّدت منى ومن غيرى

ويقول عن شرط الشهود :

تشهد النور عين نفس تزكت من دواعى الحظوظ والشهوات

ولاحظ لمن ظلت أرواحهم أسيرة فى قيود الشهوات :

لا ينجلى للحس نور صفاته فى الكون للأرواح فى التقييد

ولا بد من الفرار من عالم التشتيت والتعدد :

إلى الله فرت كل روح تطهرت من الملك والملكوت والتشتيت

وهذا يتطلب أهل العزائم وأولى الهمم :

أهل العزائم بالأرواح قد ساروا لم تلههم زينة الدنيا وآثار
غابوا بمولاهمو عنهم فقربهم لا جنة الخلد تشغلهم ولا النار
غابوا عن الكون والأشواق تجذبهم لأنهم فى سما الملكوت أنوار
قد وجهوا الوجه لله العلى فلم يقهرهمــو حالهم فيه وأوطار

فإذا تجلت الأنوار الربانية اختفت الرسوم وأفنت الحضرة الإلهية كل شىء وهذه علامة الشهود .

اختفاء الشئون ثم اختفائى عن وجود الأشكال والأضداد

اختفاء الكون والأين واختفاء معالم الجسد واختفاء الرسوم وظهور النور بلا وصف ولا كيف ولا تحديد ولا تعيين .

إذا ما اختفى رسمى فنيت ولاح لى　　من الغيب ساطعة تُسَتَّر بالغيم
غمام يرينى نور أسمائه التى　　تظللنى فى الصفو من عالم القدم

ثم تختفى أنوار الحضرة الأسمائية حينما يرتفع المشاهد إلى مقام الجمع ويرى أنوار مجلى الذات وفى هذا المقام يفنى عن نفسه ويفنى عن فنائه ويصبح المشهد توحيدياً صرفاً وهذا هو تفريد العبد لربه .. لا إله إلا الله ..

ثم يخفى الشهود يخفى مقامى　　عدت للبدء فى بحور النور
جزت سر الجحود بحر حدودى　　فى مقام التفريد سر العبور

ثم يأتى بعد الفناء البقاء فيفرد الرب عبده ويرد إليه إحساسه بذاته وهى تلك الحالة التى يقول عنها أبو العزايم :

فكلى آذان وكلى ألســـن　　وكلى عيون تشهد الوجه بالفضل

وهو تفريد الرب للعبد كما كان تفريد العبد للرب وتلك هى منازلة المحبة بين العبد وربه .. تفردنى وأفردك .

فإذا عاد هذا المشهد إلى البطون فى الغيب عاد العبد إلى حالة التلوين فى الكيف والأين والكون وتداول الشئون والأحوال وإلى عالم التشتيت الدنيوى واحتجب عن حقائقه وعن ربه . وهى حالة « الفرق » أو البعد أو الغفلة المعتادة التى نعيشها كلنا فى الدنيا

ويتكلم أبو العزايم كثيراً عن حالة المحو والفناء واختفاء الرسوم فى مواجيده الشعرية ويعجب لما يحدث من محو الجهات ومحو الزمان والمكان :

أشرقت شمسه فأخفت ظلالى　　صرت نوراً بها لمجلى الذات

وفى مكان آخر :

أشرقت شمس ظاهر وظهور ... فى غمام البها ومحو الجهات
هيبة دُكَّت لها طور سينا جهاراً ... من جلال العظموت والآيات
غاب حسى وغاب عقلى ونفسى ... صارت الروح مظهر البينات

وفى مشهد آخر :

فلما رأيت الوجه غبت عن السوى ... رُفعت به من عالم الخلق للأمر
تجاوزت عرفان الفحول لأننى ... إلى الأحد المعروف سيرى بلا فخر
فأحدية التنزيه كعبة وجهتى ... وللذات لا العرفان حالى فى الذكر

وعن الأسماء الإلهية يقول :

هم أسكرونى من شراب صفاتهم ... وشرابهم لم يبق منى باقيـــة
غاب الشهود وأشرقت شمس الخفا ... بعد انمحا تلك الرسوم البالية
لو قطرة مما شربت تدفقت ... فوق الجبال الشم ذابت خالية
أنا طلسم لا يدرنى إلا أنا ... خاف وأوصافى لذاتى بادية
كل الذى أنا فيه فضل محمد ... منه بدا وإليه كان وصوليـــا

وهو يقول دائما إن المشهد التوحيدى يعود به دائماً إلى الأولية (حضرة الجمع الأولية حينما كان نوراً يطوف حول ربه فى القدس العلى قبل أن ينزل إلى ظلام الأرحام) :

محا نوره ما تقتضيه عناصرى ... وسَتَّرها عنى فشاهدت أولى

وفى مكان آخر :

أُعدت إلى أزل فلم أر غيره ... وصرت له المرآة جل ثناه

وهو يتوسل إلى ربه :

أعدنى إلى بدئى لأفنى عن السِّوى ... بجذبة حب منك يا سابغ الفضل

ورؤية الأنوار الربانية يصفها العارفون بأنها شراب ساحر طهور .

إذا ذاقه أهل الصفا من دنانه فنوا عن جنان الخلد واللون والكون
وفروا إلى القدس العُلَى بعزائم فلم يلههُم شأن عن المشهد العينى
عزائمهم من دونها العرش رفعة ومن دونها الولدان والحور فى عدن

وما أجمل ابن الفارض حينما يتحدث عن هذه الخمر القديمة :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرْم

ويحكى أبو العزايم عن هذه الراح تدور مثنوية بين العبد والرب .

طَهور الراح دارت مثنوية بلا لبس لأهل السابقية
سكرت بها بحان القرب لما محوا رسمى بآى الواحدية
فغبت بها وفى غيبى حضورى لأن الكشف آى معنوية
محا نور التجلى فىء رسمى بسر الاجتلا فى الأولية
غشت أنواره ســدرة ذاتى فكنت ولا مكان ولا برية
ولا صبح يلوح ولا مســاء ولا عرش يلوح لدى العطية

وعن حالة الاصطلام يقول :

لا تلمنا إذا صــفونا فإنا عند ذكراه قد خلعنا العذارا
نحن قوم بحبه قد شغفنا فمنحنا الشهــود والأسرارا
ليس يدرى أحوالنا غير فرد نال منا القبول والاختيــارا
سرنا غامض دعــوى أغنى فلدى الأنس حالتى لا تجارى
لا تميل الأشــباح إلا بسر فتراها تغــيرت أطــوارًا

وعن الأسماء الإلهية مرة أخرى :

سقونى وقد رفعوا البراقع عن حسن فزالت لديها بالصفا نقطة الغين
طَهوراً من الإحسان عند شرابه تلوح لى المجلى يشير إلى العين

فغيبنى هـــذا الشراب لأننى ... تحققت محو الصاد والسين والبين
ولم يبق إلا الوجه جلَّ مُنزَّها ... محيطا بلا حجب يرى جل لا كون
أحاط بآفاق بأنوار وصـــفه ... ولاح لذاتى مشرقاً لى بلا لون

ويقول عن المحو:

محانى بعد توحيدى وقربى ... وخلصنى له من كل غيرى
وصار هو المشاهد بعد محوى ... لعين أشرقت منه بسرى

فالعين التى أرى بها الله هى من الله ، فلا يمكن أن يرى الله إلا الله .

وكلمة القرب فى الصوفية لا تعنى المكان أو الارتفاع فى المكان .

وقربى بلا كون ... ووصلى بلا أين

وفى أسلوب رامز جميل يصف ذلك المحو والإفناء .

تجلى دك ناســوتى وأبقى ... جمالا من ضيا روحى وأصلى
فلا أنا ظاهر للروح أُجلى ... ولا خاف وعلمى عين جهلى
أرانى فيه خـــاف لا أرانى ... وأشهـــد وجهه للروح مجلى
قُتلت بحبـــه فخفيت عنى ... فكان ظهوره سترى وقتلى
فأشهده وأخفى فى اتصـــالى ... ويشهدنى ويبطن حال فصلى
أُعدت لمبدئى وبه أضــــاءت ... شموس الغيب لى والوجه حولى

ويصف غيابه عن نفسه ومشاهدته للعرش والكرسى :

لدى مشهد التوحيد أفنى عن النفس ... وأخفى عن الأكوان فى حظوةالأنس
أنا عندها غيب عن النفس وال أنا ... وجودى بنور الاجتلا مشرق الشمس
لأن التجلى أصعق النفس عندما ... يدار طهور الراح بالعين لا الكأس
أُعدت وحالى إننى العبد غائبـــاً ... حضوراأرى عرش الإحاطة والكرسى

وهو يقول إن هذا كشف لا تراه العقول ولا تفهمه وإنما هو من حظ

الأرواح عند القبول فهو من مقامات أهل الأرواح وليس من مقامات أهل الأفكار .

لا تراه العقول عــز مقاماً بل تراه الأرواح حال القبول

لم ير العقل غير آى تجلت فى المبانى والعقل عين عقال

وهو حائر فى أمر المحو والاختفاء وفناء الرسوم والمعالم الجسدية ويتساءل عن سر الأمر ويحاول تفسيره .

صار رسمى كالروح أو دُكَّ طورى

هل « يتروحن » الجسد ويصير مجانساً للروح فى لطافتها بفعل التصفية والجذب الإلهى وهو يورد هذا المعنى فى أحد أبياته الشعرية :

أفارق ما يوجبه رسمى مجانســاً لما تقتضيه الروح من ساطع الغيب

هل هذه المجانسة هى التى تؤدى إلى « الرَّوحنة » وإلى لطف الجسد واختفائه أو بالتعبير العصرى ترتفع ذبذبات ذراته فيختفى ويصبح شأنه شأن الأشعة فوق البنفسجية التى لا تُرَى لارتفاع ذبذبتها .

أم أن الأمر مَحْق وسحق للمعالم المادية كما دك الجبل وخر موسى صعقاً بفعل صولة التجلى الإلهى .

صار رسمى كالروح أو دُكَّ طورى ؟ ! !

أم أن الأمر كاختفاء الكواكب فى النهار بنور الشمس بسبب غلبة ضوئها على حين تظل الكواكب موجودة برغم اختفائها الظاهرى .

تلــــوح المعانى يختفى كل كائن

وشمس الضحا تخفى الكواكب بالظلل

ثم إن اختفاء المثنوية فى المشهد التوحيدى ، هل هو اختفاء جسم وروح ؟ (هل هو فناء حكم وعين) ، وابن عربى يجيب على هذا السؤال كما سبق

أن أشرنا بأن فناء العين مستحيل وأن جمع العينين ، (عين الرب وعين العبد) فى عين واحدة وهو الاتحاد ، هو أيضاً مستحيل ، وإنما يُذهِب الله عن العين حُكمها ويخلع عليها حكمه فترى ببصره وتسمع بسمعه .. وكل ما يحدث أن المشاهد يغيب عن نفسه بصولة الحضرة الإلهية فيصبح الحضور لله الواحد القهار لا إله إلا هو ، وهذا هو تفريد العبد لربه ثم يتفضل الرب فيرد لعبده إحساسه بذاته ويثبته ويفرده كما أفرده .

إنما ذروة التوحيد الإسلامى عندنا هو تلك الصيحة التى يطلقها أبو العزايم حال تجرده :

أَخلُو ؟!! ومن . . وكل الكون مظهره ؟!!

يجـلى لنـا نـوره فى سـتر تعديد

أى مم أتجرد وكل المظاهر هى مراتب التعدد التى ظهرت من الواحد (يجلى لنا نوره فى ستر تعديد) فكل شيء من الله وإلى الله يعود .

وهل أنا إن أبحت ببعض علمى سوى نـور العلىّ بغير فخر

وبين الثنائية الأصيلة والقديمة فى الوجود وبين الوحدانية الشاملة والمهيمنة (فالله يحوى فى علمه كل القدماء وكل الأعيان الأزلية الثابتة ويهيمن عليها بحكمه وإيجاده وإعدامه) .

بين هذه الثنائية والوحدانية يغرق العقل الذى ليس لديه مصباح الشريعة ولا مقودها الهادى ، وهذا ما قصده الصوفى حينما صرخ هاتفا : غرقنا فى أوحال التوحيد

وفى هذا البحر غرق الفكر الهندى فى وحدة الوجود الوثنية .

وكانت حالة الفناء فى الشهود هى محل الخلاف والاختلاف ، وفى محاولة الهنود تفسير هذه الحالة خرجوا بفكرة الحلول والاتحاد والنرفانا

والبارانرفانا (البقاء بعد الفناء) وكلها تنظيرات خاطئة لهذه الحالة الصوفية العالية . . والسبب أنهم اعتمدوا على العقل وحكموا العقل فى أمر غير عقلانى بالمرة ولم يكن لديهم شريعة نبي أو لعلهم حرفوا تعاليم أنبيائهم كما حدث فى المسيحية الحلولية أو الزرداشتية المجوسية التى انحرفت بتوحيد زرادشت الصافى إلى عبادة النار الحسية ولم يخل الإسلام من صوفيين أخذتهم حالة السكر والجذب فشطحوا وخرجوا على الشريعة ، فهذا الحلاج يقول :

– أنا الله .. وما فى الجبة إلا الله .. حتى ابن عربى برغم تحذيره من هذا السكر والشطح إذا به يصرخ هو الآخر فى لحظة جذب هاتفاً :

مذ تألهت رجعت مظهراً ... وكذا كنت فبي فاعتصموا

ليس فى الجبة شيء غير ما ... قاله الحلاج يوماً فانعموا

ويصرخ فى مكان آخر :

إذا عرفت الحق فما عرفت سواك

ويصرخ فى مكان ثالث فى شطحة سكرى متناقضة :

وليس إلا الحق لا غيره ... فعينه الظاهر نعت العبيد

ولا تقل بأنه عينهم ... بل كما قلته لا تزيد

والفتوحات المكية مليئة بمثل هذه الشطحات ولكن ابن عربى يعود فى صحوته وفى مُجمل مذهبه وتفكيره فينكرها تماماً ويحذر منها ويستعيذ بالله من أن يختم له بالخذلان .

وهذا ابن الفارض يقول فى شطحة بعيدة يخلط فيها بين الرب والعبد ويكاد يمحو العبدية تماماً ، يقول على لسان ربه :

فلا حيّ إلا عن حياتى حياته ... وطوع مرادى كل نفس مريدة

ولا قائل إلا بلفظى مُحدِّث ... ولا ناظر إلا بناظر مقلتى

ولا مُنصت إلا بسمعى سامع ولا باطش إلا بأزلى وشدتى

ولا ناطق غيرى ولا ناظرٌ ولاسميع سوائى من جميع الخليقة

وفى عالم التركيب فى كل صورة ظهرت بمعنى عنه بالحسن زينتى

وهى مغالاة فى إسناد الأفعال كليًّا لله بشكل ينفى المحاسبة ويهدم المسئولية .. وسوف نرى أن ابن الفارض لم يقصد بذلك كفرا بل هى حالة حب وعشق استولت عليه فهو مثل الحبيب الذى يقول فى ساعة هيمان من فرط وجده :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

وتقرأ هذه المغالاة فى إسناد الأفعال مرة أخرى فى هذه الأبيات لابن الفارض :

وفى الزمن الفرد اعتبر تلق كل ما بدا لك لا فى مدة مستطيلة

وكل الذى شاهدته فعل واحد بمفرده لكن بحجب الأكنَّة

إذا ما أزال الستر لم تر غيره ولم يبق بالأشكال أشكال ريبة

وحققت عند الكشف أن بنوره اهتديت إلى أفعاله بالدجنَّة

وهو من فرط حبه يعتذر لكل الناس عن ضلالهم قائلا على لسان ربه :

وإن عبد النار المجوس وما انطفت كما جاء فى الأخبار فى ألف حجة

فما قصدوا غيرى وإن كان قصدهم سواى وإن لم يُظهروا عقد نية

رأوا ضوء نورى مرة فتوهمو ه ناراً فضلوا فى الهدى بالأشعة

وتلك هى أوحال التوحيد التى غرق فيها الفحول أمثال ابن الفارض والحلاج فما بال صغار المتصوفة .

والعلم بالله علم ضنين مرتقاه صعب .. والعالم فى هذا العلم هو من أدرك أنه جاهل .. وعين معرفة الذات هو جهلها .. يقول فى ذلك الصوفية :

العجز عن درك الإدراك إدراك

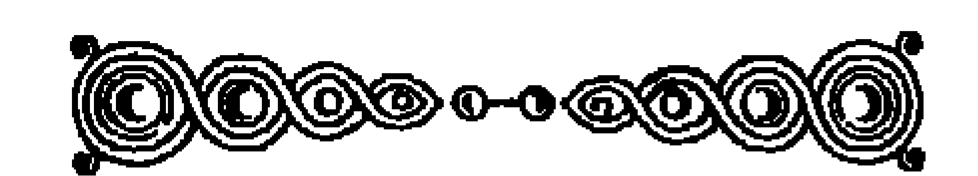
أى إذا عجزت وأصابك البهت التام وأدركت أنك جاهل فقد علمت .. أما الآخرون من مدعى العلم وأهل التفاصح والتعالم فتنطبق عليهم كلمة القرآن «كلٌّ حزبٍ بما لديْهم فَرِحُون» وهم المتعصبون الذين أغلقوا عقولهم وتصوروا أن ما عندهم من العلم هو كل العلم وفى آية أخرى يقول القرآن عن هؤلاء :

« فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رسُلُنا بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ »

(سورة غافر ٨٣)

وهؤلاء هم الذين أضلهم الله على علم فكفروا وكانوا مستبصرين .

وإذا كان القارئ قد خرج من هذه المقالات بعظمة المعارف الإلهية وبعد أغوارها وقلة نصيبه منها فقد خرج بشىء فإن الإحساس بالجهل هو الشراع المنجى فى هذا البحر الذى غرق فيه الفحول .. والإحساس بالجهل يؤدى بالإنسان إلى التواضع والاحتشام وحسن الاستماع وعدم اللجاجة فى الجدل ، وعدم التعصب وعدم التورط فى الرأى ومراقبة نفسه وتَحَسُّب كلماته وكلها فضائل هى نور للسائرين فى هذا الدرب العسير .



الحب الإلهي

الحب هو الصنم المعبود فى هذا الزمان .. هو اللات والعزى وهبل فى جاهلية هذا العصر تذبح له القرابين من دم الشباب ووقته ووعيه وتحرق بخوراً فى هذا المحراب الضبابى .. وهو تجارة أصحاب الجيوب ومضيعة أصحاب القلوب .. وهو من أخطر المفاهيم التى زيفها العصر فعرضته وسائل الإعلام مشوها . مريضاً فى الأغنية والرواية والسينما والمسرح والتليفزيون لا يكاد يخرج عن مراودات بين أنثى وذكر وتأوهات تحت ملاءة ومحاولات رجل لاصطياد زوجة رجل آخر ، لا يشغل بال المؤلف طول الوقت إلا كيف يصل إلى الفراش ، ولا يشغل بال المخرج إلا كيف يعرى جسم بطلاته .. وفى أوربا تجاوزوا ذلك إلى عرض الأعضاء التناسلية عارية فى أفلامهم ثم عادوا فتجاوزوا ذلك إلى عرض الفعل الجنسى عياناً .. ثم عادوا فتجاوزوا العلاقة الطبيعية إلى العلاقة الشاذة بين الرجل والرجل وبين المرأة والمرأة .. ثم عادوا فتجاوزوا كل هذا إلى بشاعات حسية مثل علاقة امرأة بكلب أو علاقة رجل بخنزير .. ووراء كل هذا أموال تنفق لإفساد العالم وأصابع سياسية مريبة تعمل .. وكل هذا يجرى باسم الحب والفن والحرية والتجديد.. ونحن من ورائهم نقلد فى غباء أيضاً وباسم الحب والفن والحرية والتجديد .

وحقيقة الأمر أن ما يجرى هو ظاهرة تخلف ، تخلف عندنا .. وتخلف

عندهم وارتداد للإنسانية عامة إلى حيوانية بدائية وجاهلية مادية حسية أحط من جاهلية قريش لأنها هذه المرة جاهلية مسلحة بوسائل إعلام وأدوات انتشار إلكترونية علمية تنشر الأوبئة الخلقية بأسرع من سرعة الضوء .

وما أحوجنا وأحوج العالم كله إلى الاستماع إلى ذلك الصوت الهامس العميق الحميم .. صوت الصوفيين الأطهار حينما يصفون لنا حقيقة الحب ويحملوننا على أجنحتهم لنتفهم أعماق الحب وماهيته ومنبعه .

يقول ابن عربي إن الحب الجنسي حجاب على ما وراءه من حقائق وإنه لا يروى غليل صاحبه ولا يفي بما يقوم في النفس من تعلقها بالمحبوب ، وهو كشرب ماء البحر المالح .. كلما ازداد الشارب شرباً ازداد عطشاً .. وهو يسميه بالحب العنصري لأنه يتوجه إلى صورة واحدة أو عنصر واحد وبالتصاق المحب بهذه الصورة ينحجب عما وراءها من عناصر الكون وحقائقه .

وأعلى منه الحب الطبيعي الذي يتوجه إلى جميع الصور الجميلة من نساء وفراشات وزهور .

وأعلى منه الحب الروحاني الذي يحب الموضوع لنفسه ولجوهره لا لأنه يستمد منه لذة فهو يحب ولو كان الطرف الآخر يهجر أو لا يعطي فهو لا يفكر في لقاء أو مكالمة أو مصاحبة ، والتعلق عنده متجرد من النفع والمادة وإنما هو أشبه بالاستغراق والتأمل .

وأعلى منه الحب الإلهي الذي يتوجه الشوق فيه إلى أصل كل شيء وصورة جميع الصور : الله تبارك وتعالى .

وقد اتجه العالم كله إلى الله بالحب منذ لحظة « كن » حينما نظر الله إلى أعيان المخلوقات في العدم وأمرها بالوجود فتطلعت إليه وهامت به حبّاً .

ولولا هذا الحب الخفى ما كانت حركة العالم وسيره ، ولما صح فى الدنيا طلب أبداً .. فالكل يطلب الكمال ويسير نحو الكمال ولا كمال إلا وجهه ؛ فهو سبحانه المطلوب بكل هم وإن تخفى تحت أسماء وصور عديدة ، وهو سبحانه جمال العالم وزينته .. وهو الظاهر فى كل محبوب لعين كل محب وما فى الوجود إلا محب ؛ فالعالم كله محب ومحبوب وكل ذلك راجع إليه وإلى تنزل كمالاته وأوصافه فى المظاهر : حب الوطن وحب الأم وحب الفن وحب الجمال وحب الحقيقة .. كل هذه أقنعة وأسماء لحب الله ، فالطفل يحب فى أمه أوصاف المعطى والوهاب والرزاق والحافظ والمقيت .. والفنان المبدع يحب ما تجسده صنعته من أسماء الخالق البارئ المصور .. والمفكر والفيلسوف يحب الأسماء .. الحق والعليم واللطيف والخبير والمحيط .

وما نحب فى النهاية كامن فينا وبين أضلعنا وأقرب إلينا من حبل الوريد دون أن ندرى .

ومن عجب أنى أحن إليهمو وأسأل عنهم من أرى وهمو معى
وترصدهم عينى وهم فى سوادها ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعى

وعذاب الشوق هو عقاب من أحب غير هذه العين الإلـهية .

وإحباط الجنس وملله وضجره هو أيضاً إشارة إلى أنه ... يا عبدى ليس هذا محبوبك لقد أخطأت الطريق .. عد إلينا .

ومحب الله لا يخاف فراقه .. فليس عنده هذه المشاعر السوقية المبتذلة .. (اللوعة والضنى والصبابة والهجر) . فهو يشعر أن محبوبه أقرب إليه من حبل الوريد ، أقرب إليه من نفسه وهو يراه ظاهراً له فى كل شىء .. هو فى سواد عينيه وفى بسمة وليده وفى رقصة عصفور الصباح .. إنما الشوق هنا من نوع آخر .. شوق يزداد مع ازدياد المشاهدة وتنوع الجمال الدائم ، ولهذا

فهو حب متجدد يخلو من الملل والضجر والتكرار .

ويرمز المحب بالكأس إلى عين ما يرى من مظاهر وبالشراب إلى الظاهر فيها من جمالات الله .

صارت الأكوان للخمر قداح

وبالشرب إلى ما يحدث من النشوة بالرؤية .

إلى أن تصل لذة الرؤية به إلى الفناء حينما ترفع عنه الحجب ويرى النور الربانى مجابهة .

حقيقتى هِمْت بها   وما رآها بصرى
ولو رآها لغـــدا   قتيل ذاك الحور

وفى الحقيقة ما أحب الله إلا نفسه .. فقد كان ولا شىء معه وما كان علمه بالعالم إلا علمه بنفسه (فلا شىء خارج نفسه حتى أعيان المخلوقات القديمة فى العدم هى الأخرى فى علمه) فحينما تجلى ذلك العلم للعالم كان لا بد أن يكون على صورته .. فأحبه .. وما أحب إلا ذاته .. وهو أمر لا يدرك إلا فى مقام الفناء .

ولذلك كان أكبر حجاب فى الحب هو حجاب النفس حينما يتصرف العاشق كأنه إلـٰه فيحب نفسه ويحب رأيه ويحب فكره ويحب هواه ويظل هذا الحجاب الغليظ مسدلا على عينيه حتى يتمزق ويتهتك لحظة الشهود حينما يدرك أن ذاته ما هى إلا مظهر لذات الله ، وأن الله يعبر عن ذاته فى هذه الذاتية العميقة للمحب . وأن هذه الذاتية هى مظهر لكشف اللثام عن الحق .

وذاتى مظهر لكشف اللثام

فالواحد منا يقول أنا .. وما أخذ هذه الأنا إلا استعارة من ربه .. فكل

شيء مردود إلى الله فى النهاية .. والله هو الوحيد الذى يحق له أن يقول أنا على سبيل الأصالة فما أخذ هذه الأنا عن أحد .. وإنما هى له على سبيل الوجوب .. وهى لنا على سبيل السلفة والإعارة .

وفى لحظة الرؤية الإلهية تتمزق الحجب وتفنى المعالم وتختفى الرسوم ولا يعود العارف يرى لنفسه جسداً .. إنما هو نور زج به فى نور .. وهنا يشطح به العشق والجنون ويصرخ مجذوباً

أنا من أهـوى ومن أهـوى أنا
أنا محبي أنا محبوبي أنا فتاى أنا فتاتى

لقد ألقت به الجذبة إلى التباس آخر فتصور ذاته ذات الله .. والأمر أبعد ما يكون عن ذلك فما ذاته إلا مظهر لكشف اللثام .. ذاته كالإناء وقد ظهر الإناء بلون ما فيه مثل ماء فظن فى لوثة الجذب أنه هو .. وما هو بهو. . وإنما هو مظهر لتجلية مثل أنبوبة النيون بما أظهرت من أنوار داخلها . . فهى شيء والأنوار شيء آخر والله غير جميع ما يظهر وغير جميع ما نرى وإن ظهر فيها جميعاً..

الله فى كل شيء
وهو يبدو كأنه هذا .. وكأنه ذاك
كأنه هو .. ولا هو
هو لا هو

فما نرى إلا مجرد ضرب أمثلة لجماله وأوصافه فى المظاهر المتعددة .. ولكنه هو سبحانه فى الغيب المطلق ، وحينما يصحو العارف على هذه الحقيقة ويصل إلى هذا المقام (وهو مقام الخلة والأرواح المهيمة ، وهو مقام الحب الذى هو أهل له عند رابعة العدوية) فإنه يصبح هائماً مهيما فى كل ما يرى ..

فهو يرى الله يتخلل كل شيء فيتوجه إلى الله بذاته كلها فتتخلل أسماء الله ذاته كلها وتظهر فيها (ومقام الخلة من التخلل) .

والقلب هو كأس هذا الحب لأنه ليس من عالم التقييد كالعقل والحس (لم تسعنى أرضى ولا سماواتى ووسعنى قلب عبدى المؤمن) .

ويصف أبو العزايم هذا القلب بأنه

محاط محيط فى مقام الهوية

رامزاً بذلك لإطلاقه وسعته (محيط) ولكن برغم ذلك محاط بالهوية الإلـهية فهو محاط محيط .

فالقلب هو الوحيد الذى يسع الرب لأنه روحانى من عالم الروح والصفاء وليس من عالم المادة (كصفاء الماء حينما يتسع لصورة القمر) .

وهيام المحب على وجهه أولى فى الحب الإلـهى منه فى الحب البشرى لأن الله غير مختص بمكان ، وهذا الهيمان فى الحب الإلـهى علامة بهجة أما إذا ظهر فى الحب البشرى فهو علامة يأس وقلق من هجر لا علاج له .. أما فى الحب الإلهى فهو علامة غنى واتساع وتحصيل نشوة .

وحب الرجل للمرأة هو حب الرجل لنفسه ، فعنه خرجت ومن هنا كانت السكينة إلى العودة إلى الموطن ، وكانت الشهوة نفسها تعبيراً رامزاً للرجوع إلى الأصل بسد الفراغ ورتق الثقب لاستحالة الخلاء .

والمرأة والرجل لوح وقلم .. فعل وانفعال .

ومن أحب النساء حب شهوة لا حبًّا إلـٰهيًّا فقد غابت عنه روح المسألة (لأنه أحب الرمز وغاب عنه المرموز) .

ولأن الشهوة حجاب فقد شرع الله الزواج لتسكينها لترتفع حجبها ويبدو ما وراءها

وإذا قلت هويت زينبا   أو ثريا أو سليمى فاحكموا
أنه رمز بديع حســـن   تحته ثوب رفيع مُعْلم
وأنا الثوب على لابســـه   والذى يلبسه لا يعلم

ولا يستغرق حب الرجل بالكلية إلا المرأة لأنها أكمل مظهر ولما بينهما من تناسب فهى مخلوقة مثله على الصورة ، ومن ثم كان يقابلها بـكل أجزائه الجسدية المناسبة .. ولهذا كانت فتنة حتى يكتشف فيها الصوفى .. الرمز . . ومنصة التجلى . . وأنها قناع وحجاب على ما وراءها وأنها مجرد نافذة إلى ما وراءها ثم يهتدى إلى ما وراءها .

وهل يمكن أن يكون الجنس هو سمعك وبصرك هيهات .. إنما هو العمى والقيد والحدود والوقوع فى شرك المظهر وفى حبائل المادة والطين والماء المهين .. وإنما لا تكون الأشواق السامية إلا فى كسر هذا الطوق والخروج منه لمعانقة الحق المتعالى على كل الصور المختفى وراء جميع الأقنعة .. وهنا يلتقى القلب بكل مناسباته بالمطلق بكل اتساعه وتكون النشوة الكبرى .. فالحب الإلهى يتجه إلى الكل وإلى ما وراء الكل ، والحب الجنسى يتجه إلى الجزء ثم يحبس نفسه فى جزء الجزء ثم يسجن نفسه فى ثقب فهو ينتهى إلى الضيق ومنتهى الضيق .. أما الحب الإلهى فهو ينطلق إلى كل الصور ثم يكسر إطار كل الصور منطلقاً فى فرحة وتحرر ليعانق ما وراءها .

والعناق هنا عناق حقائق فهو حرية وانطلاق وسعة .. وشتان بين هذا العناق وعناق الأجساد التى تهوى بالأرواح إلى الضيق والاختناق والأغلال .

والحب فى البداية منازلة بين العبد والرمز (بين رجل وامرأة وبين ذكر

وأنثى بين عين ومظهر) ثم هو فى النهاية عند الاستنارة منازلة بين العبد والرب (بعد أن يعبر الرمز إلى المرموز) .

وأجمل ما يقول ابن عربى إن المحب مرحوم للوازم المحبة ورسومها (وهذا هو الأصل فى صلة الرحم فقد جعل الله الحب طريقاً إلى صلة الرحم) .

ونصل إلى ابن الفارض إمام العشق الإلـهى فنراه يصوغ أحلى الأشعار فى ذلك الحب .. يقول وكلامه هنا عن الذات الإلهية :

جرى حبها مجرى دمى فى مفاصلى   فأصبح لى من كل شغل بها شغل
فإن حدثوا عنها فكلى مسامع   وكلى إن حدثتهم ألسن تتلو
وإن ذُكرت يوماً فخرّوا لذكرها   سجوداً وإن لاحت إلى وجهها صلوا

ثم يجيب من يسأله عن وصفها :

يقولون لى صفها فأنت بوصفها   خبير .. أجل عندى بأوصافها علم
صـــفاء ولا ماء ولطف ولا هوا   ونور ولا نار وروح ولا جسم
تَقدَّم كل الكائنات حديثهـــا   قديما ولا شكل هناك ولا رسم
وقامت بها الأشياء ثم لحكمـــة   بها احتجبت عن كل من لا له فهم

ويقول عن ذكر الله : (وهو الشراب الطهور عند الصوفية) :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة   سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكَرْم

ثم يسترسل :

وقالوا شربت الإثم كلا وإنما   شربت التى فى تركها عندى الإثم
هنيئاً لأهل الدير كم سكروا بها   وما شربوا منها ولكنهم هَمُّــوا
وعندى منها نشـــوة قبل نشأتى   معى أبدا تبقى وإن بلى العظم

ثم يقول عن عظمة هذا الحب ونصيب أهله :

وفى سكرة منها ولو عمر ساعـــة   ترى الدهر عبداً طائعاً ولك الحكم

ثم يقول عن موته حباً :

وخذ بقية ما أبقيت من رمق لا خير فى الحب إن أبقى على المهج
من مات فيه غراماً عاش مرتقيـــاً ما بين أهل الهوى فى أرفع الدَّرج

ثم يقول عن بذل روحه فى هذا الحب :

مالى سوى روحى وباذل نفســـه فى حب من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتنى يا خيبة المسعى إذا لم تسعف

ولكن هيهات :

إن قلت خذ الروح يقُلْ لى عجبا الروح لنا فهات من عندك شىء

وما عنده شىء وما يملك من نفسه إلا عين العدم .

ثم ما هو أقصى ما ينال فى حب هذه الذات الإلـٰهية الملثمة بغيب الغيب .

فرشت لها خدى وطاء على الثرى فقالت لك البشرى بلثم لثامى

إن منتهى النوال لثم اللثام .. فإن اللثام لا يرفع لأحد أبداً .

وحظه الفناء لحظة اللقاء .

صارت جبالى دكًّا من هيبـــة المتجلى
وصرت موسى زمانى مذ صار بعضى كلى
فالموت فيه حياتى وفى حياتى قتلى

ثم هو عند الجمع على الذات يُجنّ ويفقد الإحساس بالزمان والمكان والاتجاه .

فوصلى قطعى واقترابى تباعدى وودى صدى وانتهائى بداءتى

وعن التوحيد يقول :

تعانقت الأطراف عندى وانطوى بساط السوى عدلا بحكم السوية

وعاد وجودى فى فنا ثنوية الـ وجود شهودا فى بقا أحدية

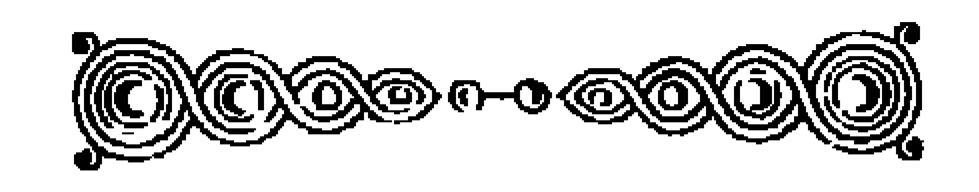
وفى هذا التوحيد يقول مرة أخرى رامزاً :

وقد وقع التفريق والكل واحد فأرواحنا خمر وأشباحنا كرم
ولا قبلها قبلٌ ولا بعد بعدها وقبلية الأبعاد فهى لها حتم

ثم ما أجمل الوجه الكريم الذى ذاب فيه عشقاً :

فأدر لحاظك فى محاسن وجهه تلقى جميع الحسن فيه مصورا
لو أن كل الحسن يكمل صـــورة ورآه كان مهللا ومكبرا
فهو الحسن من وراء كل حسن

رحم الله ابن الفارض الذى عرف كيف يحب ومن يحب وجعلنا الله من أهل هذا الحب العظيم .



المصير

يقول ابن عربى إن الإنسان مسافر مع الأنفاس منذ خلقه الله دنيا وآخرة لا يصح أن يقيم أبداً ولو أقام زائداً على نَفَس واحد لتعطّل فعل الإله فى حقه ، فالحق سبحانه وتعالى فى كل نَفَس فى الخلق فى شأن .. وهو أثره فى كل عين موجودة بكيفية خاصة فمن فاته مراعاة أنفاسه فى الدنيا والآخرة ، فقد فاته خير كثير .

ولا يزال الناس ينتقلون فى الآخرة من حال إلى حال كما كانوا فى الدنيا بينما الأعيان (أى ذوات المخلوقات) ثابتة فإن الرب يحفظها .

والحق لا يُعقل إلا فاعلاً (وهو معنى كلمة إله أى فاعل) وخالقا ومعطياً على الدوام . . وبحكم هذه الصفات نقول بدوام الانتقال والتجدد والخلق .

« يَسْأَلُهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ »

(سورة الرحمن : ٢٩)

وهى شئون بعدد أجزاء العالم التى لا تنقسم وفى كل لحظة إلى أصغر كسر زمنى (فيما يحدث فى أجزاء الذرة وهى مُستمِدَّة من الله كما أننا مُستَمِدُّون) ، وما فى الكون إلا سائل وطالب . . وما فى الكون إلا فقير .

والمحدودات كلها فى خلق جديد والناس من ذلك فى لبس .. يقول الله فى القرآن الكريم :

« أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » (سورة ق : ١٥)

أكان صعباً علينا أن نخلقكم هذا الخلق الأول وهل عيينا فيه حتى تتساءلون كيف نجدد خلقكم ؟

ومن هنا دهشة الصوفى الدائمة أمام الكون .

ولا ينقطع تكليف الإنسان حتى يجوز الصراط (إلى الجنة أو الجحيم فى الآخرة) وحينئذ تكون العبادة من الناس ذاتية ليست عن أمر ولا نهى يقتضيه وجوب أو ندب أو حظر أو كراهه وإنما ساعتها تكون عبادة تلقائية نظراً لانكشاف الحقائق .

وعن الانتقال فى المراتب فى الآخرة نجد إشارات فى القرآن إذ يقول عن المؤمنون والمؤمنات وهم يسعون فى الجنة أنوارهم بين أيديهم وبأيمانهم .

« رَبَّنا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنا» (سورة التحريم : ٨)

وهى إشارة صريحة تدل على أن العروج مستمر وأن هناك تنقلا فى المراتب .. وأن السير دائب من النقص إلى الزيادة ومن الزائد إلى الأزيد .

ثم يتكرر فى القرآن فى أماكن متعددة أن الله يوم الجمع سوف يكشف الحقائق لخلقه ويزيل اللبس ويفصل الأمور

« ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »

(سورة الأنعام : ١٦٤)

ومعنى ذلك أن التعلم مستمر وأن كشف الحجب مستمر .. فالدنيا طريق والآخرة طريق .. والسير لا يتوقف .. والعلم فى زيادة .. والتحصيل فى زيادة .

والتصور الساذج للجنة على أنها ناس مستلقون على ظهورهم على شطوط الأنهار يفضون الأبكار ويأكلون الثمار هو تصور سطحى وقف

عند الحروف ولم يحاول النفاذ من الإشارات والألفاظ إلى ظلالها ومعانيها الغنية .

ولا يعنى هذا على الإطلاق أننا ننكر النعيم الحسى أو العذاب الحسى .. فالنعيم الحسى حقيقة مؤكدة كما أن العذاب الحسى حقيقة مؤكدة .. وإذا كان الله قال إن فى الآخرة ناراً ففيها نار .. ولكن نظراً لاختلاف النشأة سوف يتحمل المجرمون تلك النار ويتكالمون فيها ويتلاعنون ويعيشون .. وسوف نرى أن فى النار شجرة (هى شجرة الزقوم تخرج من أصل الجحيم وأن فيها ماء حميما) وهذا يدل على أن لهذه النار صفات غيبية غير ما نعرف من صفات نيران الأرض .. وأن فى الأمر أسراراً .. ولا يصح أن نقف عند ظاهر الألفاظ .. وكذلك الأمر فى الجنة إذا كان الله يقول إن فيها فاكهة وأعناباً ورماناً فيجب أن نؤمن أن فيها فاكهة وأعناباً ورماناً . ولكن مع فارق هائل فى الرتبة والمذاق فلا تكاد تتشابه الفاكهة هنا والفاكهة هناك إلا فى الأسماء .. ألا نقول عن الأنثى فى الإسكيمو أو فى الزنوج إنها امرأة ونقول عن عذراء السويد الجميلة إنها امرأة وما أبعد الفارق فى الصورة .. وهذه فروق الأرض فما بال فروق ما بين الأرض والسماء ، ثم ألا توصف فاكهة الجنة بأنها لا مقطوعة ولا ممنوعة ونحن لا نعرف من الفاكهة إلا ما كانت مقطوعة وممنوعة .. وتوصف خمر الجنة بأن شاربيها لا يصدعون عنها ولا ينزفون ونحن لا نعرف من الخمر إلا ما يصدع الرأس وينزف العقل وأين هى تلك الحديقة التى عرضها السموات والأرض إذا كان الأمر مجرد حديقة .. كل هذه إشارات تدل على أن فى الأمر جانباً غيبياً .. ثم زيادة على كل هذا النعيم الحسى هناك رضوان من الله أكبر .. والرضوان سر آخر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. يقول القرآن :

« لَهُمْ مَا يَشاءُون فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » (سورة ق : ٢٥)

والمزيد هو رؤية وجه الله تبارك وتعالى ومكالمته .. وهى لذّات لا يرقى إليها الخيال والجنة بهذا الاعتبار منازل ومراتب وفيها سيْر .. وأعلى درجة فى الجنة هى الوسيلة وهى مرتبة فى الجنة لا تصح إلا لواحد هو محمد عليه الصلاة والسلام . وبهذا ندعو فى فواتح صلواتنا .. اللهم آت محمداً الوسيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدت وهو مقام الشفاعة العظمى الذى سوف يقفه يوم القيامة .

والقصور فى الجنة والمساكن فى عدن والغرفات المبنية لا يصح تصورها مبنية بالماكينات وبالطوب والحديد والأسمنت والمسلح .. وإنما كل شىء فى الجنة يبنى بالحروف .. كن .. بين الكاف والنون تقوم أكوان من العدم .. وهذا بعض ما نتعلم فى الجنة .. أسرار الحروف .. وسر القاف والصاد والنون وحم وطس وكهيعص .

ومما ترويه الأحاديث فى الآخرة أن الله يجمع الناس ويظهر لهم فينكرونه يظهر لكل أمة بصورة لا تعرفها فتنكره فيعود فيظهر لكل أمة بالصورة التى عبدوه عليها فى الأرض فيسجد الكل .. فيعود فيظهر لهم فى ما لا يخطر على بالهم من الصور والاشكال مما يدهش ويبهر ليعلمهم انه من وراء كل الصور ومن وراء كل شىء وأنه ليس أى شىء وليس كمثله شىء وهذا بعض ما يلقى الله إلى عباده من العلم فى الآخرة .

وابن عربى يعتقد بعموم الرحمة بعد العذاب فى النار .

ولكن القرآن صريح فى أن بعض من يدخل النار هم من أهلها المحكوم عليهم بالتأبيد فيها ولا خروج لهم منها ويقول بصريح اللفظ « خالدينَ فيها أبداً » (سورة النساء ١٦٩) .

« خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَاهُمْ يُنْظَرُونَ »

(سورة الأعراف : ٨٨)

« وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » (سورة البقرة : ١٦٧)

« يُرِيدُونَ أنْ يَخْرُجُوا مِنَ النارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْها »

(سورة المائدة : ٣٧)

« إنَّ الْمُجْرِمِينَ فى عَذابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . (أى يائسون) » (سورة الزخرف ٧٥) .

« وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِي عَلَيْنَا رَبُّكَ قالَ إنَّكُمْ مَا كِثُونَ »

(سورة الزخرف : ٧٧)

« لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا »

(سورة فاطر : ٣٦)

ونظرية عموم الرحمة غير مفهومة بالنسبة لهؤلاء.. والقرآن صريح فى حقهم والألفاظ صريحة وقاطعة ولا تسمح بتأويل .

ونحن نفهم تأبيد النار بالنسبة لبعض النفوس .. إن بعض النفوس (وهى نفوس الجبابرة والشياطين) مجانسة للنار فهى نارية مثلها أو أشد .. ألا يقول القرآن عن النار إن « وَقُودُها النَّاسُ وَالْحِجارةُ » (سورة البقرة : ٢٤) .

وقودها .. ومعنى وقودها .. أنهم جمراتها التى تؤججها فهم أشد منها التهاباً ونارية .. وهذا مفتاح السر .. فبعض النفوس أشد نارية من النار بالطبيعة وهؤلاء هم الجبارون ومحركو الفتن وصانعو الحروب والعذاب للناس ولأنفسهم وهم الذين نراهم فى الدنيا لا يستريحون إلا إذا قلبوا الحياة حولهم جحيماً عليهم وعلى الآخرين .. ومثل هؤلاء الناس مكانهم الطبيعى فى النار بحكم المجانسة ... والتأبيد لهم مفهوم فهده بيئتهم حيث يمارسون تعذيب

غيرهم وتعذيب أنفسهم بلا انقطاع فهذه حياتهم لا يصلحون إلا لها ولا تصلح إلا لهم ولو كان فيها عذابهم الأبدى .. ومثل هؤلاء الناس لا تبدو نارهم الداخلية النفسية وهم على الأرض فهى تتأجج محجوبة بثوبهم الطينى من اللحم والدم (ألا نطفئ النار فى الدنيا بالماء والتراب) ولكن إذا سقط هذا الثوب الترابى بالموت انكشف الأمر وكاشف كل منهم نفسه فإذا هى نار .. وفى النشأة الآخرة يكونون هم الجمرات التى تؤجج جهنم .. ويكون حظهم التأبيد فيها حقًّا وعدلا ورحمة لهم ولغيرهم .

هذا فهمنا للأمر .. والله أعلم

أما عذاب القبر فهو حقيقة قرآنية بما ورد عن آل فرعون

« النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » (سورة غافر : ٤٦)

فهذا العرض قبل الساعة على النار غدوًّا وعشيًّا كل يوم هو عذاب القبر .

أما الآية القرآنية الأخرى التى تشير إلى هذا العذاب فهى الآيات التى تروى مشاهد الحشرجة والاحتضار حينما تبلغ الروح الحلقوم .

« فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلَا إِن كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ .. فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ . إِنَّ هَذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ» (سورة الواقعة : ٩٥)

ومعنى هذا أن المحتضر يُكشف له عن مصيره حينما يدخل فى الحشرجة وتبلغ الروح الحلقوم فيتلقى بشارات الرَّوْح والريحان إن كان من المقربين

ويتلقى السلام من الملائكة إن كان من أصحاب اليمين ويكشف له عن منزله فى النار إن كان من المكذبين الضالين .. وهذا هو العرض الذى سوف يستمر يراوده فى القبر إلى أن تقوم الساعة .

« فَكَيْفَ إذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ »

(سورة محمد : ٢٥)

وهذا نوع آخر من اللقاء فور الموت إذ تتلقى الملائكة المجرمين بالضرب والإهانة .

وحياة الميت بعد الموت توصف بأنها برزخية (أى حياة شبحية بين الوجود والعدم كالنوم أو كالأحلام .. ألا نرى فى الأحلام بدون عينين ونسمع بلا أذنين ونجرى فى الأحلام وقد تكون أرجلنا مقطوعة فى الحقيقة .. والله بهذا يضرب لنا مثالا بما سيكون بعد الموت وكيف ستكون حياتنا برزخية كالأحلام .. فيرى الميت بدون عينين ويسمع بلا أذنين ويتحرك بلا جسد .. وعذاب القبر وما رويناه من مشاهد النار سيكون بالنسبة للميت كمشاهد الكوابيس فى الأحلام وكذلك مرائى الجنة ستكون كالأحلام الرفافة العذبة الجميلة .

والحياة البرزخية هى أيضاً مراتب أعلاها مراتب الشهداء والصديقين والأنبياء والأبرار وهؤلاء يعيشون حياة حقيقية (أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) فى العندية الإلهية ويروى كثيرون من أهل الكشف رؤية النبى عليه الصلاة والسلام بالجسد ومكالمته ويروى ابن عربى حضره له مع الأنبياء مجتمعين بحالهم وأجسادهم .

وهذه الدرجة العالية من الحياة البرزخية تؤهل لأصحابها التواجد فى أى مكان والاستشراف على ما يجرى فى الأرض والتمثل فى الرؤى والإلهام بالخير للاتباع والمريدين .

أما الدرجة الدنيا من الحياة البرزخية فهى حياة المجرمين والعصاة والأشرار وهى حياة سجن وقيد فى القبور تلازم فيها الأرواح مكان دفنها وتحوم حوله .

وبعض الأنبياء ذُكر أنهم رُفعوا ولم يموتوا وأن لهم حياة فى السموات مثل عيسى وإلياس وإدريس عليهم السلام وهؤلاء لهم عودة ونزول إلى الأرض ليتموا حياتهم المقدرة لهم ويموتوا مثل بقية البشر وسيكون نزولهم من علامات الساعة . . والسموات السبع غير معلوم حقيقتها ومكانها ونحن لا نعرف إلا سماء واحدة هى السماء الدنيا التى نراها بشمسها وقمرها أما السموات الست الباقية فهى غيب .

ومن وصف القرآن للسموات السبع بأنها « سبع سموات طِباقاً »

يمكن أن يُفهم أنها متطابقة وأن كل ما يوجد فى السماء الدنيا له نظائر وأشباه فى السموات الأخرى مع فارق فى الرتبة فإذا كان فى الأرض فواكه وأنهار وحدائق وأعناب فالأرضون السبع فيها من ذلك من رتب أعلى تتفاضل حتى نجد أعلى الدرجات وأرقى حياة فى السماء السابعة .. وقد يكون اختفاء هذه السموات والأرضين من المراصد بسبب أنها أكوان مادية ألطف وأعلى ذبذبة .. وقد تكون موجودة فيما نرى من مجرات على بعد ملايين السنين الضوئية وفى هذه المجرات ملايين الشموس وملايين الكواكب ولا غرابة فى أن تتكرر مرة بعد مرة ظروف تشبه ظروف الأرض فى هذا العدد الهائل من المدن النجمية التى يقول الفلك إنها أكثر من مائة ألف مليون مدينة نجمية فى كل مدينة مائة ألف مليون شمس بتوابعها وقوانين الاحتمال لا تنفى هذا التكرار .. والحقيقة فى علم الله ...

والكون المادى يوصف عند أهل الكشف بأنه السموات السبع والأرضون السبع وسدرة المنتهى والكرسى والعرش المحيط ولا نعلم من هذه الأشياء إلا

أرضنا وسماءنا وهو جهل ليس بمستغرب .. فالإنســـان جاهل بجسمه فكيف يدعى أنه أحاط علماً بجسم العالم... ولقد جاس الإنسان بمبضعه فى كل مكان من جسمه وتصور أنه أحاط بتفاصيله وبأسراره وبتشريحه وإذا بجماعة فى الصين يفاجئون العالم بأسلوب جديد يخدرون به الجسم بزرع إبر رفيعة من الذهب فى أماكن محسوبة فتستطيع أن تقطع رأس مريضك دون أن يشعر .. بمجرد زرع إبرة هنا أو هناك . . ويضرب الطب أخماساً فى أسداس ويجتمع الجراحون وينفضون ويجتمع علماء التشريح وينفضون ولا يجدون للأمر تفسيرا إلا أن يكون فى الجسم جهاز مجهول لم يكتشف بعد يهيمن على الحس والشعور غير ما نعلم من المخ والأعصاب .. أين هو ذلك الجهاز .. وما حكايته .. لا أحد يدرى .. الكل جاهل تماماً حتى الصينيون أنفسهم الذين أتوا بالاكتشاف .. وهذا حالنا مع جسمنا فكيف يُستغرب جهلنا بجسم العالم الكلى .

وأهل الكشف يقولون إن جسم الإنسان نموذج مصغر من الكون يجمع كل حقائقه ففيه العرش (القلب) والكرسى (العقل) والسدرة (الهيكل الجسدى المادى) ثم فيه الروح وهى نفخة الله التى نفخها فيه من روحه وهى تستوى على عرش الإنسان وتدبره بمثل ما يستوى الله على عرش الكون ويدبره فالإنسان صورة من الكل فى الكل كما سبق أن ذكرنا ولهذا أقامه الله خليفة وجعل مقعده إلى جواره .. يليه فى الرتبة وجعل كل شىء يأتى بعده (هذا إذا أدرك مكانته وشرفه وتصرف على مقتضى هذا الشرف وهذه المكانة)

يقول الإمام أبو العزايم فى تفسير الآية ..

« قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ » (سورة الأنعام : ٩١)

إن من يعرف مكانته عند ربه وخلقه من النور الربانى وتأهيله ليكون فى

مقعد صدق إلى جوار ربه يدرك أن الانغماس فى أوحال المادة الدنيوية هو لعب ولهو وعبث وغفلة وأن الدنيا ما خلقت وسخرت له إلا لامتحانه وامتحان أشواقه ليُعرف هل يستحق أو لا يستحق هذه المكانة العلية ..

والله طول الوقت يخاطب عيون وآذان عباده بالمظاهر التى يتجلى بها فى الدنيا يومئ إليهم بالحقيقة لعلهم يفهمون أو يدركون أو يفيقون من حالة اللعب التى هم سادرون فيها وهذا هو الشراب الطهور الذى يديره الله على خلقه .. فمن فهم الإشارة وأدرك العبارة وفك الرمز وقرأ الرسالة صرخ هاتفاً .. الله .. الله .. لا إله إلا الله .. وترك الكل فى خوضهم يلعبون .. فقد شهد حقيقته فى خفاء معالمه .

يدار شراب الطهر فى حان قربه   بعين التجلى لا بدِنٍّ ولا كأس
لديها يُفك الرمزُ عن كنز غيبه   أكُون بلا كوْنٍ ولا يوم لا أمس
وجود شهودى فى خفاء معالمى   « قل الله » برهانى فدع موجب اللَّبس

وهو يفسر الآية .. « وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ » (سورة الفجر الآية : ١) بأن الفجر هو انفجار حقيقة الإنسان بإيجاده وتعيين رتبته فى الغيب الأول من قبل التصوير والتجسيد والنزول إلى عالم الأرحام ودنيا التعدد والأضداد والأشكال .. والليالى العشر بعد الفجر فى الغيب العلى رمز إلى ليالى الإمداد وما يتطلبه الامداد من استجلاء الاستعدادات واللياقات ومدى القبول فى تلك العين الجديدة ... وهى ليال يتم فيها الدخول فى ظلمة الرسم (ظلمة الجسد) ... والشفع هو ظهور المثنوية من الوتر (الواحد)

والعشر بعد الفجر فى الغيب العلى   رمز إلى استجلائه الامدادى

والإمام أبو العزايم يقول هذا الكلام عن علم كشفى لدنِّى وليس عن اجتهاد برأى وللإمام أكثر من مائتين من الكتب والمخطوطات من المواجيد

الشعرية والإلهامات العرفانية وهو فى نظرى كنز لم يكتشف بعد وقطب ينافس الفحول قدماً وعلماً وسلوكاً .. ولا يصح أن يُقرأ شعره على أنه شعر (كما هو الحال عند ابن الفارض) فشعره لا يخضع للمواصفات الفنية للشعر وإنما هو شفرة ورموز عرفانية عالية يفهم منها كل واحد على قدر حظه ونحن ما قدمنا من علم الرجل إلا نقطة من بحر ولعل خير ما نختم به كتابنا فى الأسرار هو هذا الدعاء لمولانا الإمام أبى العزايم وهو أجمل ما قرأت فى أدعية العارفين ومخاطباتهم لربهم .. ويبدأ بطلب المغفرة فى خشوع وتوسل .

إلهى أسألك خاشعاً دامعاً تجلل وجهى سود الذنوب وظلمة الخطايا ..

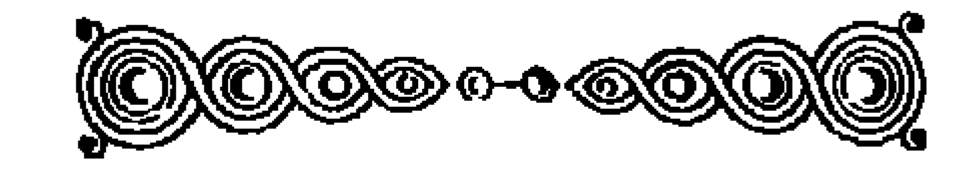
إلهى أنت أكبر من ذنوبى ولو شئت لغفرت ذنوب كل المذنبين وما نقص هذا من ملكك شيئاً .. إلهى لو شئت أن تواجه التراب بوجهك الجميل لواجهته ولا تُسأل عما تفعل . . ولو شئت أن تواجه الطين بوجهك الجميل لواجهته ولا تسأل عما تفعل . . ولقد قبضت قبضه من ذلك الطين والحمأ المنتن فجعلت منه صورة نفخت فيها من روحك القدسية . . وهذا فضلك الذى لا يحد . . فتفضل على يا رب بما أنت أهله ياذا الجود والكرم فأنا التراب والطين وأنا عبدك المذنب . . وذنوبى وإن كثرت لن تضرك بشىء وطاعاتى وإن كثرت لن تنفعك بشىء فأنت الغنى عن أعمالى فأسألك المغفرة .. وأنت أهل التقوى وأهل المغفرة .

إلهى فرِّغ قلبى مما يشغلنى عنك وأرح بدنى مما يلفتنى عنك واجذبنى إليك بعوامل جمالك وعواطف حنانك حتى أتحقق بحقيق العبودة راغباً راهبا ذاكرا لك على الدوام .

إلهى حَصِّنِّى بحصون عنايتك واحفظنى من العودة إلى المعصية بصرفى عن أسبابها واجعلنى بأعينك يا رب العالمين يا أرحم الراحمين .

إلهى أشهدنى فى نفسى حقيقة طفوليتى ومنزلة مائيتى وسر طينيتى حتى أشهد فى نفسى الفقر الكامل والذل الكامل وأرى فيك الغنى الكامل والقوة الكاملة والقدرة اللانهائية فلا أخاف غيرك ولا أرجو غيرك .. إلهى وخلصنى من بواعث بشريتى ومن دواعى آدميتى واحفظنى من شح مطاع وهوى متبع وإعجاب برأى حتى أخلص العبودة لذاتك بلا غرض .. واحفظنى من الاعتراض عليك فى أحكامك الشرعية ومن المعارضة لك فى أحكامك القدرية حفظاً يصح به إسلامى .. وتولى قبض روحى بيمينك عند انتقالى من الدنيا فرحا بلقائك وامنحنى يا إلهى بعد مفارقة هذه الدنيا إطلاقاً فى فردوسك الأعلى حتى تكون روحى سابحة فى رياض جنتك وأنت أكرم الأكرمين وصل وسلم على حبيبك وصفيك وسيلتنا إليك وبابنا إلى رضاك محمد خاتم النبيين والمرسلين .

رحم الله أبا العزايم وأمدنا الله وإياكم من عين إمداده .



التهتك الصوفي

« تعليق »

جاءتنى رسائل كثيرة حول سلسلة مقالات « السر الأعظم » البعض يقول : إنه لم يفهم شيئاً .. والبعض يحذر من شطحات الصوفيين ، والبعض يقول : إنهم أهل شطط وضلال وانحراف ، وينصح برفض التراث الصوفى كله .. والبعض يكتب بتقديس كامل لهؤلاء الناس ويتناول أفعالهم وأقوالهم على أنهم معصومون لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم ، وينصح بالتسليم الكامل لكل قول وكل فعل يصدر عنهم ويستنكر أنى راجعت بعض أقوالهم وأنكرت عليهم بعض شطحاتهم ، فهم فى نظره أنبياء أو كالأنبياء وكتبهم قرآن وتنزيل .

ولهذا رأيت لزاماً علىّ أن أكتب هذه الخاتمة .

والحقيقة أن التراث الصوفى بحر عميق فيه اللآلئ والأصداف ، ولكن فيه أيضاً التماسيح والحيتان .. فيه جزائر المرجان وفيه المتاهات المهلكة التى لا يعود منها الملاح .

والقراءة فى التصوف أشبه بالملاحة فى بحار الظلمات بقارب شراعى وما أكثر ما تنكسر الدفة ويتحطم المجداف ويفقد السالك اتجاهه .

والنور الوحيد الهادى للسالك فى هذا البحر هو نور الكتاب والسنّة .. وبدون الشريعة لا يمكن أن يصل السالك إلى بر أمان .

الشريعة دفة الملاح فى هذا البحر .. وهى دليله على ما يأخذ وما يدع .. فما وافق الشريعة من لغة القوم وعلومهم يأخذه ، وما خالف الشريعة يتركه غير نادم .

والتسليم الأعمى بكل ما هو مسطور فى هذا التراث يؤدى بصاحبه أحياناً إلى الكفر والضلال الصريح ، فالقوم أهل مواجيد وجذبات وأحوال وبعض ما يقولونه ينطقون به فى حالات الوجد وذهول العقل كما يقول العاشق لمعشوقته فى لحظة غرام مشبوب .. أنا وأنت روح واحدة وجسم واحد .. أنا أنت وأنت أنا ، وهو كلام فى حقيقته كاذب .. فلم يحدث اتحاد بينه وبين حبيبته .. ولكنه من فرط حبه توهم هذا الاتحاد فى حالة من حالات التهتك والتوقد العاطفى .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا　　　نحن روحان حللنـــا بدنا

ولا يصح أن نقرأ هذا الكلام على أنه ترجمة لواقع أو على أنه حقيقة عرفانية .. بل على أنه تهتك وغرام وهوى مشبوب ووجدان مذهول .

وبهذا المعنى يجب أن نقرأ أبيات الصوفى العاشق ابن الفارض التى يخاطب فيها الرسول عليه الصلاة والسلام قائلاً :

إلىَّ رسولاً كنت منى مرســلا　　　وذاتى بـآيـاتى علىَّ استدلت

وكلهم عن سبق معناى دائر　　　بدائرتى أو وارد من شريعتى

وإني وإن كنت ابن آدم صورة　　　فَلى فيــه معنى شاهــد بأبوتى

فهو يقول فيها أنا الله ، أنا الذى أرسلتك بشريعتى ، أنا الدائرة التى يخرج منها كل شيء ويعود إليها كل شيء . أنا ابن آدم فى الظاهر وأبو آدم وخالقه فى الحقيقة .

وهو كفر صريح . . أو قل هو تهتك المحب الذى تصور أنه عين المحبوب . .

فهو يقول لله ، أنا أنت ورسولك أنا الذى أرسلته وآدم أنا الذى خلقته .

كما قال المتهتك الآخر :

العين واحدة والحكم مختلف   وذاك سر لأهل العلم ينكشف

أى أن الخالق هو عين المخلوق .. ونحن أمام حكمين لعين واحدة هى رب من وجه وعبد من وجه .. وهى وحدة الوجود الهندية الوثنية التى تعنى التعطيل الكامل لفكرة الربوبية .

ونقرأ هذا التهتك الصوفى نفسه فى قصيدة لأبى حامد الغزالى فى كتاب معارج القدس .

ولعل هذه القصيدة مدسوسة على الرجل .. ولعلهم نحلوها له ظلماً وتحريفاً .. الله أعلم .

يقول فيها لربه :

وهل أنا إلا انت ذاتاً ووحـــدة   وهل أنت إلا نفس عـين هويتى
ملأت جهاتى الست منك فأنت لى   محيط وأيضاً أنت مركز نقطتى
فصرت إذا وجهت وجهى مصليا   فرائض أوقـــاتى فنفسى كعبتى
وحـولى طوافى واجب وخـــلاله   استلامى لركنى فى مناسك حجتى
وذكرى وتسبيحى وحمدى وقربتى   لنفسى وتقديسى وصفو سريرتى
ولو هم منى خاطر بالتفـــاتة   لمـا كان لى إلا إلىَّ تلفـتى

وإن صحت نسبة هذه الأشعار للإمام الغزالى فلا يصح أن نقرأها إلا على أنها تهتك صوفى وخلع للعذار وجنون تام تصور فيه المجذوب من فرط قربه لربه أنه هو والله واحد .

وهم يقولون هى خمر الحب التى أذهلت عقل شاربها وأفنته عن نفسه فأصبح الحق هو الذى ينطق على لسانه .. لا هو ..

إنها مرة أخرى ذلك الهوى المشبوب الذى يجعل المجنون يقول لِلَيْلَاهُ .. أنا أنت وأنت أنا .

والضلال كل الضلال أن نقرأ هذا الكلام على أنه أدب عرفانى أو تعبير عن حقيقة ، فإنه يكون منتهى سوء الفهم الذى يقلب الإيمان كفراً والهدى ضلالاً .. وإنما هو كلام يقرأ على أنه تهتك ولوثة وحالة من البسط فقد فيها المحب عقله وفقد أدبه .

وهو كلام لا يؤخذ أبداً على ظاهره .

وكما أن الصوفيين أهل جذبة فهم أيضاً أهل مغالاة ، فقد يتزهد الواحد منهم لدرجة يحرم على نفسه الملح و يعتبره ترفاً ، أو يحرم على نفسه المخالطة الجنسية حرامها وحلالها فلا يتزوج . أو يقطع الصحراء بدون زاد إمعاناً فى التوكل وتفويض الأمر لله وإسقاطاً للتدبير .. ولا يصح أن نفهم هذه الأمور على أنها إسلام ، فهى ليست من الإسلام فى شىء ، وإنما هى من المغالاة والتزيد والإفراط الذى يخرج بالإسلام عن جوهره كدين توسط واعتدال .. وسنة رسولنا عليه الصلاة والسلام صريحة فى حديثه :

« إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

فهو ينهى تماماً عن أمثال هذا التزيد والإفراط ويأمرنا بالاعتدال وأخذ كل شىء برفق .

ويقول : أنا أصوم وأفطر وآكل اللحم وأخالط زوجاتى فمن رغب عن سنتى فليس منى .

ودينننا ليس ضد المال وإنما هو ضد الذل للمال وضد كنز المال وضد البخل بالمال على الآخرين .. وهو لا يفضل لنا الفقر والحاجة ، بل يفضل لنا الغنى

والإنفاق والكرم ، ورسولنا عليه الصلاة والسلام يقول : « نعم المال الصالح للعبد الصالح » ، ويقول الإمام على : « لو كان الفقر رجلاً لقتلته » ، فهذه الأحوال من زهاد الصوفية وفقرائهم لا يجب أن تتخذ كقدوة وأسوة ونموذج يحتذى ، وإنما على العكس تقرأ كنماذج من المغالاة والإفراط والتهتك فى محبة الله انتهت بصاحبها إلى لوثة وهجر للدنيا ورفض للطعام وانقطاع للتبتل .. وبالمثل لبس الخرقة والعباءة المرقعة ، فرسولنا عليه الصلاة والسلام لم يؤثر عنه لبس الخرقة ، وإنما كان أنيقاً نظيفاً حسن الملبس فى بساطة واعتدال .. وهو أسوتنا وقدوتنا .. وإنما الخرقة هى الأخرى لون من ألوان التهتك فى الحب .

وأنا لست من الرأى القائل برفض التراث الصوفى كله بسبب هذه المغالاة والإفراط والشطح والجذب .

كما أنى لست من الرأى القائل بالتسليم الكامل والتقديس الكامل وقراءة هذا التراث على أنه حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتلاوة أقوال هؤلاء الناس على أنها قرآن والنظر إليهم على أنهم معصومون .

وكلا الرأيين مغالاة وشطط فى الرفض وفى القبول معاً .. تماماً مثل رفض الطب بحجة وجود مشعوذين ودجالين بين الأطباء .. أو بسبب وقوع بعض الأطباء فى أخطاء فى التشخيص .. أو مثل رفض علم الفلك لأن هناك فلكيًّا أخطأ فى القياس .. وإلا كان معنى هذا أن نرفض العلم كله ونعود بحضارتنا ألف سنة إلى الوراء .

ورفض التراث الصوفى يسلب الإسلام من أجمل وأروع ما كتب فى رياضة النفس وفى تزكية الأخلاق ومجاهدة الشهوات .. كما يحرم الفكر الإسلامى من أعمق ما قيل فى التوحيد وفى المعارف الإلهية .

وما أجمل ما يقوله الصوفى الموحد لربه فى خشوع وحب :

هذا الوجود وإن تعدد ظاهراً وحيـــاتكم ما فيه إلا أنتم

ويشرح لنا ذلك الصوفى قوله بأن كل ما يراه فى الدنيا هو تجليات الحضرة الأسمائية والحضرة الصفاتية لمولاه ، فالسم تجل لاسمه « الضار » والترياق تجل لاسمه « النافع » والخصوبة تجل لاسمه « الرزاق » والأمومة تجل لأسمه « الرحيم » والربيع تجل لاسمه « المحيى » والخريف تجل لاسمه « المميت » والزلزال تجل لاسمه « الجبار » .. وكل ما يبدو من مخلوقات هى كلماته .. إلى آخر ما قدمنا فى المقالات من نظرية ابن عربى من أن العالم هو مظهر لعموم التجلى وحجة على العقل بظهور الله بأفعاله وحكمته ومشيئته وصفاته وأسمائه فى كل شىء .

وما أبعد هذه النظرة عن وحدة الوجود الوثنية الهندية . . فالبوذى يقول . . العالم هو الله .

ونحن فى الإسلام نقول إن العالم هو صنعة الله وتجليات لقدرته . . ونحن نقرأ صفاته فى صنعته ونتجلى أسماءه من كمالات صنعته ، أما ذاته سبحانه فهى فى غيب الغيب لا يجوز عليها الحلول أو التجسد أو الاتحاد أو الاتصال أو الإنفصال وإنما هى فى العلو المطلق . . وإنما كل ما نرى حولنا من مظاهر فهى تنزلات أسمائية وكلمات وأفعال إلهية ، ألم يقل سبحانه وتعالى لمريم عن المسيح :

« إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ »

(سورة آل عمران : ٤٥)

وعن يحيى :

« أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ »

(سورة آل عمران : ٣٩)

وكلماته سبحانه لا نهاية لها ولا تعد ولا تحصى وكل المخلوقات كلماته :

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مداداً لِكَلِماتِ رَبِّى . لَنَفد الْبَحْرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً » . (سورة الكهف : ١٠٩)

وفرق كبير بين أن نقول إن العالم هو الله وبين أن نقول إن العالم كلمات الله . . فالأولى تعطيل وكفر مهذب وعدم اعتراف بأى شىء سوى بالمادة التى نسميها الله . (وهذا سر اللقاء السعيد بين الماركسية والبوذية فى الصين) والثانية هى النص الصريح بوجود ذات مطلقة فى الغيب صدر عنها الكون والوجود . . كما تصدر الكلمات عن المتكلم . . والتفرقة هنا واضحة وقاطعة بين مظاهر الوجود المتغيرة (التى هى الكلمات) وبين الذات الأزلية الأبدية الباقية الخفية فى غيب الغيب .

وما أجمل وأعمق الموحد الذى يقول :

« ما وحد الأحد أحد »

فالله سبحانه هو الذى وحّد ذاته بكلماته وأفعاله وآياته الدالة عليه . . وآياته هى التى هدتنا إلى توحيده . . فما وحد الأحد أحد فى الحقيقة سوى الأحد .

وما أجمل الموحد الآخر الذى يقول :

صاحب التوحيد أعمى أخرسُ — لا أنـا قال ولا أنت أنـا
يا عبيد النفس ما هذا العمى — لم تزالوا تعبـدون الـوثنـا
سـقتم الظـاهر من أحـوالـكم — ما لنـا منكم سوى مـا بطنا
فأخرجوا بالموت عن أنفسـكم — تبصروا الحـق بكم مقـترنا
وانظروا مـا لاح فى غيركم — تجـدوه فيـكم قـد ضُمِّنَـا

فصاحب التوحيد أعمى أخرس لا يرى نفسه . . لا يرى إلا المشيئة وآيات الحكمة الإلهية .

ولا يرى الذات الإلهية إلا الله . . وإذا كان لنا مدخل إلى رؤية هذه الذات فى الآخرة فلا طاقة لنا بهذه الرؤية إلا بالله وبفضله .

إذا رام عاشقهـــا نظـــرة
ولم يستطع إذ علا وصفها
أعارته طرفاً رآهـــا به
فكان البصير لها طرفهـــا

سبحانه لما تنزه عن النهاية انتفى عنه الضد والند عند الغاية .

لا تنتهى فيه النهى لنهـــاية   من شاء يطنب فيه أو لا يطنب

هو الواحد بذاته المتكثر بصفاته وأسمائه وكلماته المحتجب من فرط ظهوره كسواد العين لا يرى من فرط قربه .

يقول الصوفى عن تلك الذات الإلهية فى غيب الغيب .

وما احتجبت إلا برفع حجابهـــا
ومن عجب أن الظهور تستر

فسبحان من اختفى بما به ظهر وغاب بما به حضر .

ويقول الصوفى المتأمل فى أحوال الكثرة فى عالم الدنيا .

« الكثرة فى عالم الفنا هى التى أوجبت لبعضها البعض النطق بأنا » .

ويقول إن لفظة أنا هى لسان فردانية الله فى الأفراد الذى تحير منه المتعلم والعالم .

ويقول إن الذات الإلهية متجردة فى ذاتها من الاسم والوصف والكيف والكم والأين . . وإنما تعددت الأوصاف بتعدد القوابل كما يبدو الماء الذى لا لون له متعدد الألوان فى الأكواب الملونة من الزجاج « لون الماء لون إنائه » . . فيعكس كل إناء ما يناسب استعداده وطبيعته .

كما تخرج الثمار المتعددة الطعوم والروائح من الماء الواحد الذى لا لون له .

« يُسْقَى بماءٍ وَاحِدٍ ونُفَضِّلُ بَعْضَها عَلَىَ بَعْضٍ فى الأُكل » .

(سورة الرعد : ٤)

كل بذرة تأخذ وتعطى من النبع بقدر استعدادها والكل صادر من ثراء الذات الإلهية اللانهائى .

يقول الصوفى ابن عطا الله السكندرى :

« إلهى ماذا وَجَدَ مَن فَقَدَك وما الذى فَقَدَ من وَجَدَك . . لقد خاب من رضى دونك بدلاً ، ولقد خسر من بغى عنك متحولاً . . إلهى كيف نُرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان ، أم كيف يطلب غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان .

بهذه اللمسات النورانية تمضى بنا رحلة التصوف لتضيف إلى المعرفة الإلهية وإلى التوحيد عمقاً وشاعرية وحرارة .

وبدون التراث الصوفى يفقد الدين بعداً وجدانيًا وعمقاً عرفانيًا لا غنى عنه .

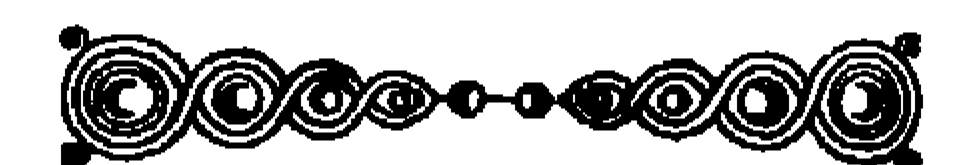
ولكن أيضاً وبنفس القدر من الأهمية لا يصح أخذ التراث الصوفى على أنه قرآن منزل ، ولا يصح التسليم بكل ما فيه على علاتة ولا يصح النظر إلى الصوفيين على أنهم أنبياء معصومون لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم . . بل هم قوم ممن خلق الله يجوز عليهم الخطأ والصواب .

والقراءة السليمة للتراث الصوفى هى القراءة الإنتقائية الناقدة التى تزن كل حرف بميزان الشريعة وتعرضه على ضوء السنة والكتاب والعقيدة السليمة التى علمها لنا كتابنا ونبينا عليه الصلاة والسلام لا نجاوزها قيد شعرة ولو دعانا إلى هذا التجاوز إمام الصوفية فى زماننا .

ولهذه المحاذير سوف تظل المعارف الصوفية زاداً للقلة والخاصة من القراء وعلماً مضنوناً به على غير أهله ، وليس علماً مشاعاً للعوام والكثرة ، لأنه علم يحتاج إلى بصيرة لفهمه واستشفافه ولأنه معرفة تحتاج إلى ذوق ومعاناة لإدراكها .

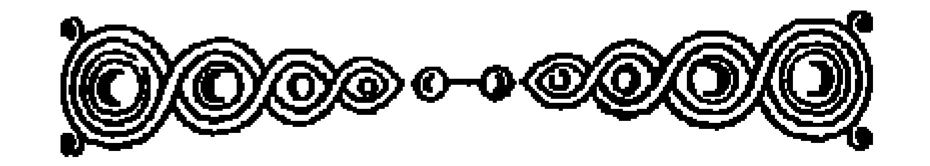
ولمن يقول إنه لا يفهم شيئاً نقول :

لو أحببت كما أحببنا لفهمت كما فهمنا



فهرس

الصفحة



رقم الإيداع	١٩٩٩/٥٢٥٠	
الترقيم الدولى	977-02-5799-0	ISBN

١/٩٩/٣٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوِّع.



دار المعارف

٠٢٥٧٢٣/٠١